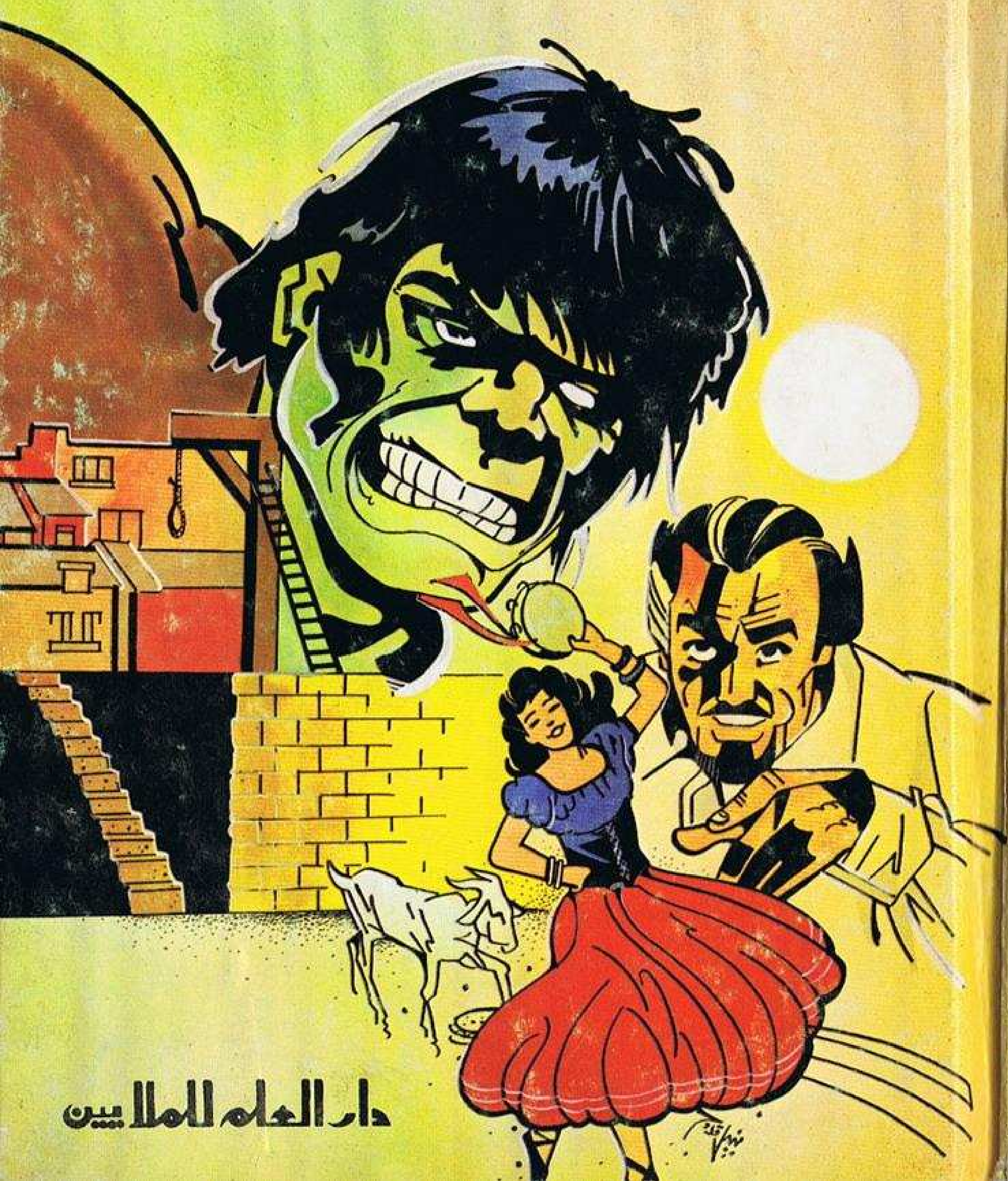
المكتبة العالمية
للفتيان والفتيات

أحدب نوتردام



دار العلم للملايين

المكتبة العالمية للفتيان والفتيات
أحدب نوتردام
دار العلم للملايين

- ليس بين آثار شاعر فرنسا العظيم، فيكتور هيغو، ما هو أعظم من «أحدب نوتردام» و«البؤساء».
- وقد سبق لدار العلم للملايين أن قدَّمت، في هذه السلسلة، رواية «البؤساء» ويسرّها اليوم أن تُتبع ذلك برواية «أحدب نوتردام».
- إنها رواية إنسانية تُرجمت إلى جميع اللغات، وأخرجت على الشاشتين الكبيرة والصغيرة عشرات المرات.
- ولسنا نشكّ في أنها سوف تحتلّ مكانها في مكتبة كل ناشىء من ناشئتنا العزيزة في الوطن العربي.

المكتبة العالمية
للفتيان والفتيات

أحدب نوتردام

تأليف
ڤيكتور هيغو

تعريب
رمزي البعلبكي

دار العلم للملايين
بيروت

دار العلم للملايين
مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر
شارع مار الياس - خلف ثكنة الحلو
ص ب ١٠٨٥ - تلفون : ٣٠٤٤٤٥ - ٨١٦٦٣٩
برقياً : ملايين - تلكس : ٢٣١٦٦ ملايين
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى ١٩٧٧
الطبعة السابعة
حزيران (يونيو) ١٩٨٦

١ - البهو الكبير

كان اليومُ السادسُ من كانونَ الثاني عام ١٤٨٢ يوماً باعثاً للانفعالِ الشديدِ في شعبِ باريسَ كُلِّه. فقد كان يومَ المُلوكِ وعيدَ المجانين. وكان قد مرَّ يومان فقط على وصولِ السفراءِ الفلاماندييَن المكلَّفينَ بإنجازِ عقدِ الزواجِ بين وليِّ العهد ومارغريت دي فلاندر، في باريس. وقد استقبلهم الكردينالُ دي بوربون راغماً، واستضافهم في قصرِه.

وكان المقررُ في ذلكَ اليومِ أن توقدَ النيرانُ في ساحةِ جريف فرحاً، وأن يُحتفلَ بغرسة أيّار في كنيسةِ «براك»، مع مشاهدةِ التمثيل في قصرِ العدالة. ولذلك اتّجه جمهورُ البورجوازيين والبورجوازياتِ إلى هذه الأمكنة، واختار كلٌّ منهم المكان الذي يفضّلُه، وإن كان معظمُهم قد اتّجه إلى نيران الفرح، أو إلى مشاهدة التمثيل. أما السفراءُ الفلامانديُّونَ، فكانوا سيشاهدون مسرحيّة «السر»، وسينتخبونَ بابا للمجانين، في البهوِ الكبير.

وأخذت ساحاتُ البهوِ الكبيرِ تغصُّ بموجاتِ الجمهورِ المتدفّقةِ، وكانتِ الصيْحاتُ والضحكاتُ تبعثُ ضجيجاً شديداً في المكان. غير أن لطمةً من لطماتِ جنديٍّ من الرماةِ – أو حصانَ رقيبٍ من الشرطة – كانت كفيلةً بإعادةِ النظامِ وبالتخفيفِ من الضجّة.

أما وسَطُ البهو فقد ارتفعت فيه مصطبةٌ معلقةٌ بالجدار ينفذُ إليها الداخلُ من مدخلٍ خاصٍ عن طريقِ ممرِّ الغرفةِ المذهّبة. وقد رُفعت هذه المصطبةُ خصيصاً للسفراءِ الفلاماندنيين وللشخصياتِ الكبيرةِ التي كانت مدعوّةً لمشاهدةِ مسرحيّةِ «السر».

وكان الجمهورُ ينتظرُ أن تبدأ المسرحيّةُ التي كان مقرّراً أن تبدأ عندَ الساعةِ الثانيةَ عشرة. وأخذ بعض منهم يتسلقُ الجدران، ويحتشدُ حول الأعمدةِ، ويتكاثرُ عند الشرُفات. وكانت تُسمع بين الفينةِ والأخرى شتائمُ ضدَّ الفلاماندنيين، ورئيسِ التجار، وكاردينالِ دي بوربون، وقاضي القصر، وأسقفِ باريس، وبابا المجانين. وكانت تنطلق من طوائف الطلاّبِ والخدمِ المتفرّقينَ نكاتٌ وقهقهاتٌ، تمتزج بالضيق، والضجرِ، ونفادِ الصبرِ الذي أخذ ينتشرُ بين الموجودين.

وكان أحدهم ينادي آخرَ قائلاً: «أُقسِمُ أنك جوهان فرولو دي مولاندينو! إنك جان المطحنة! متى أتيت إلى هنا»؟

فيجيبُه جوهان: «أُقسِمُ برحمةِ الشيطانِ أني هنا منذ أكثر من أربعِ ساعات».

وكان بعضُهم ينادي: «لوكورنو! جيل لوكورنو!».

وعلت أصواتٌ أخرى تقول: «ليسقط عميدُ الجامعةِ والناخبونَ والمدّعونَ العامّون» أو «يجب أن نقيمَ نارَ الفرحِ في ميدانِ غايار هذا المساء»، أو «ها قد جاء السيّدُ العميدُ.. مرحباً به.. أهلاً بالأبلهِ العجوز»، أو «ليسقطِ الكهّانُ وخُدّامُ الكنائس».

وانبعث بعد ذلك سكوتٌ مفاجىءٌ عندما دقّتْ ساعةُ الظهيرة. وبقيتِ الأعناقُ كلّها مشدودةً، والأفواهُ كلّها مفتوحةً، واتجهتِ الأبصارُ إلى المرتفعِ المخصّصِ للوفودِ الفلاماندية. والحقيقةُ أن الجمهورَ كان منذُ الصباحِ ينتظرُ أشياءَ ثلاثةً: الظهرَ، وسفارةَ الفلاندر، ومسرحيةَ السر. وكان الظهرُ هو الشيءُ الوحيدُ الذي جاء في وقتهِ المحدّد!

وبعد أن انتظر الجمهورُ بعضَ الدقائق، كان يتمتم فيها «السرّ! السرّ!» انطلق صوتُ جوهان صارخاً: «السرّ! وليذهبِ الفلاماندنيّونَ إلى الشيطان». فأخذ الجمهورُ يردّدُ العبارةَ نفسَها وراءه. ثم قال جوهان: «نريد السرّ حالاً أو نشنقَ قاضي القصر بدلاً من التمثيلِ الهزليِّ والأخلاقيّ».

وصرخ الشعب : « حسناً . ولنبدأ بجنوده الواقفين » .

وتبع ذلك هياج كبير ، وبدأ الجنود الأربعة يصفّرون بعد أن اتّجه الجمهورُ نحوَهم . لقد كانت فترةً كثيرةَ الحرَج .

وظهرت في الأمامِ شخصيةٌ جديدة صرخت : « سكوت ! سكوت » !

وتقدّمت هذه الشخصيّةُ بحذرٍ ، وقالت : « أيها السادة البورجوازيّون ، والآنسات البورجوازيّات ، إن لنا شرفَ تقديمِ مسرحيّةٍ أخلاقيّةٍ جميلةٍ أمام صاحب النيافة الكاردينال ، وعنوانها : القضاءُ الصالحُ للسيّدةِ مريم البتول . وسأمثّل أنا دور جوبيتر . وسنبدأ مباشرةً بعد وصولِ النيافة الكاردينالية » .

٢ - بطرس جرنجوار

لم يرضَ الجمهورُ بهذه التهدئة ، وأخذتِ الصيْحاتُ تعلو في أرجاءِ البهو : « إبدأوا حالاً ! السرّ ! السرّ ! » . وصرخَ الطلّابُ المتسلّقون فوق النوافذ : « ليسقط جوبيتر وكاردينال دي بوربون » ! أما الجمهور فكان يردّد : « نريد المسرحيّةَ الأخلاقيّةَ حالاً » !

أما جوبيتر المسكينُ فكان يرتجفُ خوفاً .. كان خائفاً من أن يشنقَه الجمهور إن انتظر .. أو أن يشنقَه الكاردينال إن لم ينتظر . وكان من حسن حظّه أن بادر أحدهم إلى إنقاذه من هذا الموقف المحرج ، بتحمّل المسؤوليّة عنه . فقد تقدم شخص طويل رقيق أشقر منه وقال له : « إبدأ حالاً ، وأرضِ الناس ! وأنا أضمنُ تهدئة السيّد قاضي القصر الذي يضمنُ بدورهِ تهدئةَ الكاردينال » .

وما إن سمع جوبيتر هذا حتى صرخ في الجمهور الذي كان يصرخ ضدّه : « سادتي البورجوازيين ، سنبدأ حالاً » .

وصفّق الجمهورُ مرتاحاً . وحينذاك بادرت سيّدتانِ الشابَّ الذي كلّم جوبيتر بالقول : « هل تعدُنا بأن يكون السرُّ اليومَ جميلاً » ؟

فأجابها : « لا ريبَ في ذلك » . ثم أضاف بشيء من الغرورِ قائلاً : « إنني أنا الذي وضعتُ هذه المسرحيّة . إنني أُدعى بطرس جرنجوار » .

وعلى الرغم من هدوء الجمهور ، فقد صرخ الطالب جوهان قائلاً : « التمثيليّةَ حالاً ، أو نعودَ إلى سيرتنا الأولى » .

ولكن لم تكن هناكَ حاجةٌ إلى مزيد من الانتظار ، فقد بدأتِ الموسيقى ، وارتفعتِ السجاجيدُ ، وتسلّق أربعةُ

أشخاصِ سلَّمَ المسرح وحيُّوا الجمهورَ ، ثم سكتت الموسيقى .
لقد بدأت مسرحية السر .

كانت المسرحيّة رمزيَّة ، يرمزُ الأشخاص الأربعة فيها إلى النبّالة ، والكهانة ، والتّجارة ، والفِلاحة . فالفِلاحة كانت متزوجةً من التجارة ، كما كانت الكهانةُ متزوِّجة من النبالة .

وعلا صدى التصفيق والتشجيع ، مُلقياً في نفسِ بطرس جرنجوار نشوةً عظيمة .

غير أنَّ هذه النشوةَ لم تدمْ طويلاً . وذلك أن شحاذاً ذا أسمالٍ باليةٍ اعتلى دِعاماتِ المرتفع المخصّص للضيوف ، وجلس مستدرّاً انتباهَ الجمهورِ وشفقتَه بأسمالِه البالية دون أن ينبسَ ببنتِ شفة . ولم يُحدِثْ هذا المشهدُ فوضى محسوسةً لولا أن جوهان انتبه له ، وصرخ خلالَ الصمتِ الشامل : « انظروا هذا الخبيثَ المريضَ يسألُ الصَّدَقة » !

عند ذلك أخذ الشحّاذُ يقول : « صدقةً لله ، أرجوكم » !

وردَّ جوهان قائلاً : « إن هذا صديقُنا كلوبان ترويفو » .

فتابع الشحاذ يقول : « صدقةً لله ، أرجوكم » !

وبعث هذا المشهد سروراً بالغاً في نفوس المستمعين الذين أخذوا يصفّقون ، في حين غضب جرنجوار من توقّف

المسرحيّة ، وصرخ في الممثلينَ الأربعة : « تابعوا عملكم ! يا للشيطان » !

وتغلّبتِ المسرحيّةُ في النهاية على الفوضى بين الجمهور . لكن صوتَ الحاجبِ في ذلك الوقتِ كان يعلِنُ عن قدومِ صاحبِ النيافةِ سيادةِ كاردينال دو بوربون .

٣ ـ السيد الكاردينال

لعل فرقعةَ جميعِ الأسهمِ الناريةِ في عيدِ القديس حنا ، وانطلاقَ النارِ من عشرينَ بندقيّة ، وانفجارَ مدفعيّة برج بيلي الشهيرة ، كانت كلُّها أقلَّ تأثيراً وقسوةً بالنسبةِ لجرنجوار ، من صرخةِ الحاجبِ الذي أعلن عن وصولِ صاحبِ النيافة .

لم يكن هذا لأنَّ بطرس جرنجوار يخافُ الكاردينال ، أو يحتقرُه ، بل لأن مصلحتَه الخاصّة بمتابعةِ المسرحيّة كانت تفوقُ عنده كلَّ ما عداها .

أما الكاردينالُ فقد وقف فترةً قصيرةً فوق عتبةِ المرتفعِ الخاص ، مرسِلاً نظره في الجمهور ، فتضاعفت الضجّة .

والحق أن الكاردينالَ كان شخصيَّةً عاليةَ المقامِ ،

فكان مشهده لذلك أعظم عند الجمهور من مشاهدة أيّة مسرحيةٍ تمثيليّة. لقد كان نيافته أسقفَ ليون، وحليفَ لويس الحادي عشر عن طريق أخيه بطرس، وحليفَ شارل العنيد عن طريق أمّه.

وقد حالت شعبيّةُ الكاردينال عند جمهور باريسَ من استقباله استقبالاً سيّئاً. ثم إنه كان بهيّ الطلعة، أي أنّ النّصفَ الأحسنَ من المستمعين، أعني النساءَ، كان إلى جانبه.

وإذن دخل الكاردينال، وتبعهُ أعضاء موكبه الذين كانوا عُرضةً لتعليقاتِ الجمهور، وبخاصةِ الطلاب الذين كان اليوم يومَ تهتّكِهم وثرثرتهم المجنونة.

ولم يكن الضجيجُ الشاملُ المشفوعُ بتعليقاتِ الطلاب مصدرَ همّ الكاردينال. لقد كان مصدر همّه هو التفكير في أنه مرغَمٌ على الاحتفالِ ببعضِ من لا يعرفُ من البورجوازيين أو ببعضِ صغار الرؤساء، أو بفلامانديين شاربي البيرة، وهو النبيلُ العظيمُ شارل دي بوربون، والكاردينالُ الفرنسيُّ الكبير.

وأعلن صوتُ الحاجب عن وصول «السادةِ رسلِ السيّدِ دوق دوتريش»، فالتفتَ الكاردينال نحو الباب، كما التفت معه جميعُ الموجودين.

وشاع صمتٌ كبير في البهو ترافقه ضحِكاتٌ مختنقةٌ عند الإعلان عن الأسماءِ الغريبة لهؤلاء الرُّسُل.

وكان بين الرسل رجلٌ دقيقُ الوجهِ، ذكيٌّ، كيّسٌ، وهو غليوم ريم، مستشارُ مدينة غان وحاكمُها التنفيذي. لقد كان هذا الرجلُ عبقريّةً فذّةً، وكان القليلون فقط يعرِفونَ حقيقة عبقريّته. وتقدّم الكاردينال نحوه ثلاث خطوات باحترامِ ظاهرِ العمق.

٤ — الاستاذ جاك كوبانول

وبينما كان غليوم ريم يتبادل الحديث مع صاحبِ النيافة، تقدّم رجلٌ ذو وجهٍ عريضٍ، وكتفينِ قويّتين، من غليوم ريم، فأوقفه الحاجبُ الذي ظن أنه سائس ضائع عن طريقه، نظراً للوحل الذي كان يغطي سُترتَه الجلدية. وقال له الحاجبُ: «إنك لن تمرّ يا صديقي».

فدفعه الرجلُ بكتفِه قائلاً: «ماذا يريد مني هذا الشاذ؟ ألا ترى أني تابعٌ له»؟

فسأله الحاجب: «ما اسمك»؟

— «جاك كوبانول».

— «صفاتُك»؟

— « صانعُ الأحذيةِ ذاتِ السلاسلِ الثلاثة في مدينةِ غان».

واندهش الحاجب. فقد كان ممكناً أن يُعلِنَ عن مجيءِ رئيسِ مدينةٍ، أو شيخِ قرية، أما أن يُعلِنَ عن مجيءِ صانعِ الأحذية، فكان أمراً صعباً عليه.

وفي هذه الأثناء تقدّم غليوم ريم من الحاجبِ مبتسماً، وهمسَ في أذنه: «أعلِنْ عن المعلّم جاك كوبانول، مساعدِ شيوخ مدينة غان العظيمة». فردّد الكاردينال بصوتٍ مرتفع: «أيها الحاجب أعلن عن المعلم جاك كوبانول، مساعد شيوخ مدينة غان العظيمة».

كان الجهرُ بالصوت خطأً. لكن كوبانول كان قد سمع ما قاله الكاردينال، فصرخ بصوت كالرعد: «لا. جاك كوبانول، صانعُ أحذية، هل نسيت أيّها الحاجب؟ أليس صانعُ الأحذيةِ شيئاً جميلاً»؟

وانفجر الضحك، وتعالى التصفيق. لقد بدا هذا الصانعُ مساوياً للكاردينال حين وقف أمامَه رافعاً رأسَه.

وحيّا كوبانول صاحبَ النيافةِ بفخرٍ بارزٍ، وردّ الكاردينالُ هذه التحيّة إلى البورجوازيّ القويّ، الذي يخافُه لويس الحادي عشر نفسُه. لقد كان يرى هذا الصانعُ أن صِفَتَه كصانعِ أحذيةٍ لا تقل عن أية صفة أخرى.

أما الكاردينالُ المسكينُ، فكان عليه، فوقَ كل ما حصل، أن يشربَ كأس هذه المرافقةِ السيّئةِ حتى الثمالة.

وأما الشحّاذ الوقح، الذي لا نحسبُ أن القارئَ قد نسيه، فقد ظلّ في مكانه رغمَ وصولِ الضيوف اللامعين. لقد كانت وقاحتُه نادرةً، إلى حدٍّ أنّه كان يكرّر قوله: «صدقة لله، أرجوكم»! لقد كان هذا الشحاذُ الشخصَ الوحيدَ، بين الحضور، الذي لم يلتفتْ ليشهدَ الشجارَ بين كوبانول والحاجب.

وأرادتِ الصدفةُ أن يجلسَ صانعُ الأحذية في الصف الأوّل من المِنَصّةِ فوقَ الشحّاذ، ولم يندهشْ أحد من رؤيته يربّت بلطفٍ بالغ على كتف الشحّاذ، فيلتفتُ الشحاذ نحوه، ويتعرف إليه.. لقد كان صديقاً له.

وقد أثارت طرافةُ المشهدِ هذا ضجيجاً شديداً عند الجمهورِ المتمتع، وقد خُيِّلَ للكاردينال أن الشحاذ كان يطلبُ صدَقَةً من كوبانول، فصرخ محتجّاً على هذه الوقاحةِ: «ألقِ أيُّها السيّدُ قاضي القصر بهذا الشاذّ في النهر».

فقال كوبانول: «لا يا سيدي الكاردينال.. إنه واحد من أصدقائي».

وعضّ الكاردينال على شفتيه مغتاظاً، في حين هتفَ الجمهور لكوبانول الذي أصبح له رصيدٌ كبير بين الموجودين.

أما بطرس جرنجوار، الذي يبدو أنّنا نسيناه ونسينا مسرحيّته، فلم يَكفُفْ طوال هذا الوقتِ عن الاضطرابِ

والحركة ، وعن الطلبِ إلى بعضِ الحضورِ تشجيعَ الآخرين على متابعةِ المسرحيّة .

ولما استتبّ الهدوء قليلاً ، ظنّ جرنجوار أنّه يستطيع أن ينقذ الموقف ، فقال متلفتاً إلى رجل شجاع ضخم : « سيّدي ، ما رأيك لو نبتدئ المسرحيّة من جديد » ؟

فقال الرجل : « كم سيسرّكَ هذا » !

واكتفى جرنجوار بهذا التأييدِ النصفيّ ، فأخذ يصرخُ : « أعيدوا المسرحيّة .. أعيدوها » !

وصرخ جوهان دومولاندينو منبّهاً الطلابَ إلى ما كان جرنجوار يقوله ، فصرخوا جميعاً : « لا ! لا ! فلْيسقطِ السرّ فلْيسقط » !

واقترب قاضي القصر من الكاردينال ، وشرح له ، متلعثماً ، الوقاحةَ الشعبيّة التي أجبرت الممثّلينَ على الابتداء قبل وصول نيافته ، فانفجر الكاردينالُ ضاحكاً وقال غليوم ريم : « سيدي ، لنكتفِ بما أصبناه من التخلّص من نصفِ المسرحيّةِ ، فهو ربح لنا » .

وعندئذ قال الكاردينال : « فليتابعوا ! والأمرُ عندي سواء . إنني سأقرأ في كتاب صلاتي أثناء هذه الفترة » .

وتقدّم القاضي إلى طرف المنصّة وصرخ قائلاً : « أيّها البورجوازيّون ، أيّها القرويّون ، أيّها السكّانُ ، لقد

تفضّل نيافته فأمر بمتابعةِ المسرحيّةِ إرضاءً لمن يريدونَ إعادتَها ولمن يريدون الانتهاءَ منها » .

فوجب على الطرفين أن يرضيا بذلك ، وتابع الممثّلون مسرحيّتهم .

لكن الهدوءَ كان يقطعه إعلانُ الحاجبِ عن الرُسُلِ الفلاماندينَ القادمين . ولقد أصبح الجمهورُ غير مبالٍ بالمسرحيّةِ ، بعد أن كان ، قبل أن تبدأ ، شديدَ الحماسةِ لها .

ومع ذلك حاول جرنجوار ، عند انتهاءِ قدومِ الرُسُل ، أن ينقذَ مسرحيّته ، لكن كوبانول ، صانعَ الأحذية صرخ في الجمهور قائلاً : « سادتي بورجوازيي باريس وسادتها الريفيين .. إنني أُقسمُ أنني لا أعرفُ ماذا نصنعُ هنا . إنني أرى هناك في الزاويةِ فوق القوائمِ أناساً على وشك أن يقتتلوا . وإنني أجهل إن كان هذا هو ما تدعونه بالسر . إنّهم جبناءُ لا يخدشونَ أنفسَهم إلا بالإهانات . لقد كان من الواجبِ أن تستدعوا مصارعينَ من لندن أو من روتردام . ثم إني قد كنتُ وُعدتُ بعيدِ للمجانين ، وقيل لي إنني سأشهدُ حفلةَ انتخابِ بابا للمجانين . واعلموا أننا لنا نحنُ في غان بابا للمجانين ، ولكن هاك ما نصنعه هناك : نجتمعُ على هيئةِ جمهورٍ كبير ، كما هو الأمرُ هنا ، ثم يُدخِلُ كلٌّ واحدٍ رأسَه عبرَ ثُقبٍ ويكشّر للآخرين . ومن كانت له أقبحُ تكشيرةٍ بتأييدِ الجميعِ انتُخِبَ

بابا . إن هذا شيءٌ ممتعٌ حقاً . فهل تريدونَ أن ننفـذَه . إنه على الأقل ، سيكونُ أقلَّ إملالاً من الاستماع إلى ثرثرة هؤلاء الممثّلين » .

لقد كان جرنجوار راغباً في الرد ، لولا الحماسةُ الشديدةُ التي استقبل بها الجمهور كلام كوبانول .

٥ – كوازيمودو : الاحدب

أُعِدَّ كلُّ شيء بسرعة لتنفيذ الفكرة التي طرحهـا كوبانول . واختيرتِ الكنيسةُ الصغيرةُ القائمةُ تجاه منضدة الرخـامِ مسرحاً للتكشيرات . ثم كُسِرَ لوحٌ زجاجيٌّ فوقَ الباب ، ليتيحَ مجالاً لدائرةٍ من الحـجَرِ يمُدُّ المتنافسونَ رُؤوسهم منها ، بعد أن يتسلـّقوا برميلينِ وُضِعا لهـذه الغاية . وتمَّ الاتفاقُ على أن يُغطـّيَ كلُّ مرشحٍ وجهَهُ ، ويبقى مختبئاً في الكنيسة حتى ساعةِ ظهوره ، حتى تُعطى التكشيرةُ صفةَ الجِدَّةِ والفعالية .

وامتلأتِ الكنيسةُ الصغيرةُ بالمتنـافسين ، ثم أُغلِقَ عليهم الباب . وكان كوبانول يصدرُ الأوامرَ كلـّهـا من مكانِه ، وينظـّمُ كلَّ شيء . أما الكاردينالُ فكان قـد انسحبَ من حاشيتِـه كلـّها خلال الفوضى الصاخبـةِ ،

بجُجَةِ الأعمالِ وأداءِ صلَواتِ العَصرِ ، دون أن يُحدِثَ انسحابُه أيّما أثرٍ في الجمهور .

وبدأتِ التكشيرات . فواحد بأجفانٍ منقلبـة ، وآخر بجبهةٍ مجعّدة وشِدق فاغر ، وهكذا . وعلَتِ القهقهاتُ بتتابعِ التكشيرات . لقد كانت هذه التكشيراتُ تحمـلُ كلَّ الأشكالِ الهندسيّة ابتداءً من المثلّثِ حتى المربّـعِ المنحرفِ ، ومن المخروطِ حتى المكعّبِ ، فكانت تمثّـلُ كل التعابيرِ البشريّةِ من كل الأعمال . لقد كان هذا الاحتفال يتحوّلُ بصورةٍ متزايدة إلى احتفالِ فلامنـدي ، حتى لم يعدِ البهوُ الكبيرُ إلا أتوناً من السفاهةِ والمرحِ والصراخ :

– « أنظر إلى هذا الوجه » !

– « إنه لا يساوي شيئاً » .

– « لننظرْ إلى وجه آخر » !

– « أنظر إلى هذا الشّدق ، كأنه شِدقُ ثورٍ ، إنه لا ينقُصُه إلا القرون » .

أما فيما يتعلّق بجرنجوار ، فقد استعاد هدوءَ أعصابه ، وأمر ممثليه بمتابعةِ المسرحيّة ، وبالمقاومةِ حتى النهاية . لقد أحسَّ برغبةٍ أكيدة في الظهورِ أمامَ كُوّةِ الكنيسةِ ليكشّر أمام هذا الشعبِ العاقّ . غير أنه عدل عن هذه الفكرة التي رأى أنها لا تليقُ به .

ولاحظ جرنجوار أنه ليس الوحيد الذي يتابعُ المسرحيّة ، فقد كان ذاك الرجلُ الضخمُ الذي كان قد استشاره جرنجوار في موقفٍ حرجٍ سابقٍ ، منتبهاً ، متوجّهاً نحو المسرح . وتأثّر جرنجوار بإخلاص شاهده الوحيد ، فاقتربَ منه ، ووجّه كلامَه إليه ، وهو يهزُّ ذراعه ، لأن الرجل الضخم كان قد اتّكأ على الحاجز واستسلم للنوم .

قال جرنجوار : « سيّدي ، إني شاكرٌ لك » .

فأجاب الرجلُ الضخمُ متثائباً : « علامَ » ؟

فقال جرنجوار : « إنكَ الانسانُ الوحيد الذي تفضّلَ بالاستماعِ إلى المسرحيّة . إن اسمكَ سينتقل إلى الاحفاد . كيف تجدُ المسرحيّة » !

فأجاب الرجل : « لا بأسَ بها » .

وكان على جرنجوار أن يكتفيَ بهذا المديح ، لأنّ عاصفةً من التصفيق ، ممتزجةً بالهتافات ، قطعت حديثهما . لقد انتُخب بابا المجانين .

فبعد أن تتابعتِ الوجوهُ ذاتُ الزوايا المخمّسةِ ، والمسدّسةِ ، وغيرِها ، لم يبقَ للفوز في الاستفتاء إلا تلك التكشيرة الفائقة السمُوّ ، التي بهرتِ المجتمعين منذ قليل . لقد صفّق المعلمُ كوبانول نفسُه ، وكلوبان الذي

اشترك في المباراة ، واعترف بهزيمته رَغمَ قُبحِ وجهِه .

لقد كان صاحبُ التكشيرة ذا وجهٍ صُلبٍ ذي وجوهٍ أربعةٍ ، وفمٍ كأنه حدوةُ حصان ، وعينٍ واحدةٍ يسدُّها حاجبٌ أشعثُ ، بينما كانت العينُ اليُمنى مختفيةً وراءَ ورَمٍ شديدِ الضخامة ، أما أسنانُه فكانت منخورةً ومتكسّرةً ومفلولةً ، تنتشر هنا وهناك في فوضى ظاهرة ، وقد برزتِ الأنيابُ إلى الخارجِ كأنّها أنيابُ فيلٍ ، فوق ذقنٍ متشعّبة .

كان التأييدُ الهاتفُ تأييداً إجماعياً ، فانطلق الناسُ نحو الكنيسةِ الصغيرةِ ، وأخرجوا منها الرجلَ السعيدَ : بابا المجانين ، وهنا كانتِ المفاجأةُ والإعجابُ : لقد كانت « التكشيرةُ » هي وجهُه . وبتعبيرٍ آخر ، كان شخصُه كلُّه مجموعةً من التكشيرات : رأسٌ كبيرٌ تكاثفَ فيه شعرٌ أصهبُ ، وحدَبَةٌ بين الكتفينِ برزَ جانبُها الآخرُ من الأمام ، وجهازٌ من الأفخاذِ والأردافِ لا نظامَ فيه ، وأقدامٌ عريضةٌ ، ويدانِ بشعتان مخيفتان . وكان مع هذا التشويهِ كلّه يملك من الحيويّةِ المرعبةِ والخفّةِ والشجاعةِ الشيءَ الكثير .

وعندما ظهرَ هذا العملاقُ ذو العينِ الواحدةِ على عَتبَةِ الكنيسةِ ، عَرفه الجمهورُ سريعاً ، فصرخ بصوتٍ واحدٍ : « هذا كوازيمودو المعوجُ الساقَيْن » !

وغطّت النساء وجوهَهن ، وسُمعت واحدةٌ منهن تقول : « أيُّ قردٍ كريهٍ هذا » ، وأخرى تقول : « إنّه الشيطان » .

أما الرجالُ فقد كانوا فرحينَ يصفّقونَ ، وقد اقترب منه أحدُ الطلاب ، واسمه روبان بوسبان ، يضحكُ منه عن قُرب ، فاكتفى كوازيمودو بأخذِه من حِزامه ، وقذفِه على عشرِ خطُواتٍ منه وَسْطَ الناس . فعَلَ هذا دونَ أن ينطِق بحرف واحد .

واقترب كوبانول من الأحدبِ يقول له : « إنك أجملُ قُبحٍ رأيتُه في حياتي » . فلم يُجب كوازيمودو . وتقدّمت سيّدةٌ عجوزٌ من كوبانول تخبرُه عن صممه ، فقال : « يا صليبَ الله ! انه بابا كامل » .

وصرخ جوهان : « لقد عرَفتُه .. إنه قارعُ أجراسِ أخي الكاهن .. مرحباً بكوازيمودو » .

وفي هذه الأثناء انطلق الشحاذونَ والخدمُ والنشالونَ والطلّابُ ، في موكبٍ حافل ، وألبسوا كوازيمودو التاجَ والثوبَ دون أن تطرفَ له عين في نوعٍ من خضوع متكبّر . وحمله اثنا عشر رجلاً من جمعيةِ المجانين فوقَ أكتافهم ، فارتسم على الوجهِ العملاقِ الحزينِ فرَحٌ مُرٌّ شديدُ الازدراءِ ، حين رأى تحت قدميه المشوّهتين كلَّ

الرؤوسِ الجميلةِ والأجساد المستقيمة . وابتدأ الموكب طوافه في القصر ، قبل الخروجِ إلى الشوارعِ ومفارقِ الطرق .

٦ – الاسمرالدا

خرج الموكب الصاخبُ من الصالة إذن ، وقد خرجت معه الأدواتُ الموسيقيّة التي حملها المحتفلون ، بعد أن أخذوها من المسرح .

ولم يبقَ في الصالة سوى بعضِ النساءِ ، والعجزةِ ، والأطفالِ ، وقد أرهقهم جميعاً ما سمعوه من الضجةِ والصَخَب . وكان بعضُ الطلابِ باقياً فوق حواجبِ النوافذ ينظرُ إلى الميدان . وفجأة صرخ واحدٌ من أولئك القابعين فوق النوافذ : « الأسمرالدا ! الأسمرالدا في الميدان » !

وأحدثت هذه الكلمات أثراً سحرياً في الموجودين ، الذين أخذوا يقفزون نحوَ النوافذِ ، أو يتسلقونَ الجدرانَ لينظروا ، مردّدين : « الأسمرالدا ! الأسمرالدا » !

وعلى الرّغم من كل ما حدث ، ومن خُلُوّ المسرحِ من الأدوات الموسيقية ، كان جرنجوار يأمر ممثليه بمتابعة

المسرحية . لكنه لما اكتشف أن أحد الطلابِ أخذ سُلَّماً كان مقرّراً استعمالُه في أحد المشاهد ، علم أن هذه خاتمة الصدمات ، فتراجع منخفضَ الرأس ، كأنه قائدُ جيشٍ باسلٌ ، كان آخر من يتراجع ، وآخر من يعترف بالهزيمة .

٧ - ميدان جريف

كانت الشوارعُ قاتمةً حين خرج جرنجوار من القصر . ولم يكن يجرؤ جرنجوار على الدخولِ إلى منزله في شارع « جرونيا سورلو » ، خوفاً من صاحب منزلِه الذي كان يطالبُه بأجورِ السكن لستة أشهر .

وتذكّر جرنجوار أنه كان قد لمح في الأسبوع الماضي ، في شارع « لاسافتري » ، عند بابِ منزلِ مستشارٍ في البرلمان ، درجاً يصلح مِخدّةً لمتسوّلٍ أو شاعرٍ يقصده . فشكر جرنجوار العنايةَ الإلهيةَ التي أرسلت إليه هذه الفكرةَ ، وهمّ بالذهابِ ، لكنه اصطدم بموكبِ بابا المجانين يعترضُ الطريقَ بصيْحاتٍ عاليةٍ وأنوارٍ من المشاعل كبيرةٍ ، مع الآلاتِ الموسيقيةِ التي أُخذت من المسرح .

وبعد أن كان جرنجوار قد حاول الاحتفاظَ بعزلتِه ، وتجنُّبَ العيد ، سرى في جسده عزمٌ يائس على الاندماجِ في العيد ، والذهابِ إلى ميدان جريف ، وذلك يأساً من التخلّصِ من بابا المجانين ، ومن المشاعلِ الملتهبة والمفرقعاتِ المدوّية . وردد قائلاً : قد أقعُ هناك ، على أيةِ حال ، على جمرةٍ من نارِ الفرح تبعثُ الدفءَ في جسدي ، وأتعشّى بفُتات من حلويات الاحتفال .

واتجه جرنجوار نحو ميدانِ جريف . إنه الميدانُ المشؤومُ الذي ما زال يبعثُ في الناسِ ، حتى اليومِ ، أفكاراً ممقوتةً ، بسبب المشنقةِ والوتدِ اللذيْن كانا منصوبين فيه ، واحدِهما إلى جانب الآخر في وسَط الميدان . لقد احتُقر في هذا الميدانِ كثيرٌ من الناسِ ، ونفّذت في كثيرٍ منهم أحكامُ الإعدامِ بواسطةِ الأجهزةِ الكثيرة من التعذيبِ ، كالعجلاتِ الحديديةِ ، والمشانقِ الحجريةِ .

٨ - الشاعر المرتبك

كان جرنجوار يرتعدُ من البردِ حين بلغ ميدان جريف ، ولذلك سُرّ كثيراً حين لمح حشداً كبيراً من المشاهدين متحلّقين حولَ النار يتدفأون ، وينظرون إلى فتاةٍ



الغجرية ترقص

ترقص وسطهم .

لم يستطع جرنجوار أن يحكمَ ، باديءَ ذي بدء ، إن كانت هذه الفتاةُ كائناً بشرياً أو شيطانةً من الجنِ ، أو ملاكاً.

لم تكنِ الفتاةُ طويلةً ، لكنَّ قوامَها الدقيقَ كان ينطلقُ جريئاً ، وكأنه سهمٌ رائش . لقد كانت سمراءَ ذات وجهٍ مُشعٍ . وكانت ترقصُ وتدورُ ، وتثيرُ من حولِها إعصاراً عاصفاً فوق بساطٍ فارسيٍ عتيقٍ ألقيَ تحتَ قدميها .

وكانت الأنظارُ كلُّها موجَّهةً إليها . لقد كانت تبدو مخلوقةً مما وراءَ الطبيعة حين ترفعُ دفَّها راقصة على دقّاته ، وحين كانت تنكشفُ في كتفيها العاريتين ، وساقيها المشوقتين ، وعينيها اللاهبتين ، روعةُ الحياةِ وتَفَجُّرُها .

وقال جرنجوار في نفسه : « إنها حوريّةٌ من الآلهة ، بل إنها إلهةٌ بعينها » !

لكنه ما لبث أن عَرَفَ أنها غجريّة ، لقد كان هذا واضحاً من طريقةِ رقصِها ، ودورانِها ، ومن السيفيْن اللذيْن كانت تستعملها في أداء رقصتها .

وبين آلاف الوجوهِ التي كانت متّجهةً نحو الغجريّةِ ، كان

أكثرَ وجه استغراقاً في تأمّل الراقصة وجهُ رجلٍ صارم ، وهادئٍ ، وقاتمٍ ، لم يتجاوزِ الخامسةَ والثلاثين من عمرِه كما يظهر . لقد كان أصلعَ لم يبقَ على رأسه سوى خُصُلاتِ شعرٍ قليلةٍ ، كما ابتدأت التجعّداتُ تنحفرُ على جبهتِه العاليةِ العريضة . أما عيناه الغائرتان فكانتا تحتفظان بحياةٍ لاهبةٍ وشبابٍ متفجّر . وقد أبقى عينيه موصولتيْن بالفجريّة التي لم تكن تتجاوزُ السادسةَ عشرةَ من العمر .

وتوقفتِ الفتاة عن الرقص بعد أن أخذ منها التعبُ مأخذَه ، فصفّق لها الجمهورُ في حبٍّ خالص . وقالت الفجرية : « دْجالي ! دجالي » ! فاقتربت منها عنزةٌ صغيرةٌ ، بيضاءُ ، جميلةٌ ، يزيّنها قرنانِ ذهبيّان ، وأظلافٌ ذهبيّةٌ ، وعِقد ذهبيّ أيضاً . قالت لها الفجريّة : « دجالي ، لقد جاء دورك » .

وقدمت الفجريةُ الدفّ الذي كانت تحمله ، إلى عنزتها ، وسألتها : « دجالي ، في أي يوم من الشهرِ نحن » . فرفعتِ العنزةُ ظِلفها الذهبيَّ الصغير ، ونقرت على الدفّ ستَّ نَقَراتٍ متتابعةٍ ترمُزُ إلى اليومِ السادسِ من الشهر . ثم سألتْها عن الساعة ، فنقرت سبعَ نَقَراتٍ على الدف ، ترمُز إلى الساعةِ السابعة .

لقد كان الشعبُ في دهشة غامرة .

وانطلق صوتُ الرجل الأصلع : « إن وراء هذا كلّه لسحراً » . غير أن تصفيق الجمهور أغرق هذه الملاحظة في غمرته ، وتابعت الفجريّةُ أسئلتَها للعنزة ، فكانت العنزةُ تقلد مِشيةَ فُلان ، أو صَنيع آخر .

هذا والجمهور يصفّق بحماسةٍ بالغة . وارتفع صوتُ الرجلِ الأصلعِ ثانيةً يقول : « هذا تدنيسٌ لحُرمةِ المقدّساتِ ، وانتهاكٌ لها » .

فالتفتت الفجريّة مرة أخرى ، وقالت : « آه ، إنه هذا الانسانُ الكريهُ نفسه » ! وكشّرت له ، وانطلقت تجمعُ عطيّاتِ الناسِ في دفّها .

وبينما كانت الفتاةُ تجمع النقودَ صرخ صوتٌ حادٌّ منطلقٌ من أشدِّ أطرافِ الميدان قتامةً ، يقول : « هل ستذهبين أيتها الجرادة الفجريّة » ؟

فالتفتت الفتاةُ مذعورة . إنه لم يعد صوتَ الرجلِ الأصلع ، بل كان صوتَ امرأة .. وهو صوتٌ خبيثٌ بلا شك ، ومع ذلك ، بعث الصوتُ المَرَحَ في مجموعةٍ من الأطفالِ كانوا يقولون : « هذه حبيسةُ برجِ رولان ، إنها السجينةُ التي تدمدم ! ألمّا تتناولْ عشاءها ؟ فلنحمل إليها بقيّة من فتات الخبز » !

وانطلق الجميع نحو بيت العواميد ، وتذكّر جرنجوار

أنه هو أيضاً لما يتناولْ عَشاءه ، فانطلق نحو المَقصف ، لكنّه اكتشف أن الأطفالَ كانوا قد أتوا على كل ما فيه من طعام .

وأخذ جرنجوار يتأمّل في حاله : لا خبزَ ، ولا مأوى ، ولا نفعَ يأتيه من الفلسفةِ والشعر . ولم ينتزعه من هذه الأفكارِ إلا صوتُ الغجريّةِ التي كانت تغني . لقد كان غناؤها رائعاً روعةَ رقصِها : كان موجاتٍ صافيةً ، رنّانةً ، مجنّحةً ، ذات تناغمٍ وانسجامٍ ثمينَيْن . وكان وجهُها الجميلُ يتتبعُ طَفَرات غنائها في حركةٍ فريدةٍ ، ابتداءً من الإلهامِ في أروعِ حدّية ، حتى الجلالِ في أروعِ خَفَرِه ، فيكاد السامع يقول إنها مليكةٌ تارةً ، ومجنونةٌ تارةً أخرى .

وكان جرنجوار يستمع إلى غناءِ الغجريّة بلذّةٍ غامرةٍ ، ونسيانٍ مطلقٍ لكلّ شيء ، حينَ ارتفعَ الصوتُ النسائيُّ ، صوتُ الحبيسةِ ، يصرخُ في الغجريّة : « ألا تسكتينَ يا حَشَرَةً من جهنّم » ؟

وشُغِل الحاضرون عن التصدّي للحبيسةِ بمرورِ موكبِ بابا المجانين ، الذي كان يصب في ميدان جريف ، بمشاعلِه وضجيجِه ، بعد أن طاف الشوارعَ ومفارقَ الطرق .

لقد تطوع للسير في هذا الموكب كلٌّ من كان في باريسَ من حثالةِ الناسِ ، واللصوصِ ، والعاطلين عن العمل ، والمتشرّدين . أما شعبُ الفجر فكان يمشي في المقدّمة ، وبينهم أعضاءُ مملكةِ « الأرجو » ، أي مملكةِ لصوص فرنسا ، أعضاءُ امبراطوريةِ « الجليل » ، وعلى رأسِها « امبراطور الجليل » غليوم روسو . وبينهم جميعاً المشوّهونَ ، والأوغادُ ، والخبثاءُ والأيتام . ويزدهي فوق هؤلاء كلّهم بابا المجانين الجديدُ ، قارعُ أجراسِ نوتردام ، كوازيمودو الأحدبُ ، وقد اعتمر قبّعةَ الأسقفيّة ، وحمل عصاها ، ولبس ثوبها .

وكان وجه كوازيمودو القبيح ينمُّ عن متعة كبيرة أحس بها في أعماق كيانه . لكنه حتى في هذا اليوم لم يعرفْ من الناس سوى الإذلالِ ، والاحتقارِ لطبعه ، والتقزّز من شخصه . ولم يكن يخفف من سخريةِ الناسِ بهذا الأصمّ ، إلا أنّه كان قوياً صُلباً ، وخفيفاً سريعَ الحركة ، وخبيثاً فاسدَ السّريرة .

لكن بابا المجانين هذا كان بعيداً عن إدراكِ المشاعرِ التي يبعثها في نفوس الآخرين . فالعقلُ الذي يتربّع على هذا الجسدِ الناقصِ ، هو نفسُه ناقصٌ بالضرورة .

وفجأة رأى الناسُ رجلاً ينطلق نحو كوازيمودو ،

وينتزعُ عصاه الخشبية الذهبيّةَ من بين يديه ، بحركة غاضبة ثائرة . لقد كان هذا الرجلُ الجريءُ هو نفسُه الرجلُ الأصلع الذي بعث القشْعْريرةَ في الفتاةِ الغجريّة. لقد كان يلبَس زِيّه الكهنوتي . وقد عرَفه جرنجوار فصرخ : « إنه استاذي ، دوم كلود فروللو . يا للشيطان ! ما الذي يريدُه من هذا الأعورِ الكريه ؟ إنه سيقتل نفسه » .

والواقع أن صراخاً مرعباً قد ارتفع : فقد نزَل كوازيمودو المخيف ، واستدارت النساء حتى لا يرينه يمزّق الكاهن . وقفز كوازيمودو قفزة واحدة حتى بلغ الكاهن ، ونظر إليه ، ثم جثا على ركبتيه . أما الكاهنُ فانتزع قبعةَ كوازيمودو ، وحطّم عصاهُ ، ومزّق ثوبه .

وبقي كوازيمودو جاثماً أمام الكاهن الذي كان يحاوره محاورةً غريبةً بالإشاراتِ والحركات . وأخيراً أشار الكاهن إلى كوازيمودو بأن يقفَ ويتبعَه ، فانتصب كوازيمودو ومشى تابعاً الكاهن ، وأخذ يجبر الناس على الابتعاد عن طريقه ، مهدّداً إياهم بصريرِ أسنانِه ، وبقبضتيْه الحديديتيْن ، وبزمجرتِه المخيفة .

٩ ـ جرنجوار يتبع الغجرية

راح جرنجوار يتبعُ الغجريّةَ مستسلماً إلى الأقدار . لقد رآها تسيرُ ، مع عنزتِها ، في شارعِ ـ الكوتلليري ـ ، فسار فيه . كان يقول في نفسه : « ولِمَ لا » ؟ لقد كان يعلمُ أن لا شيء أعود على أحلامِ اليقظة بالخير من تتبُّعِ امرأةٍ جميلةٍ ، دون أن يعرفَ من يتبعُها إلى أين تسير .

وكانت الشوارعُ تزداد إظلاماً وخلاءً ، وظل جرنجوار منساقاً وراء الغجريّة ، عبر الطرقِ المقفرةِ التي كانت تسلكها دون تردّد .

ويبدو أن الفتاةَ قد تنبّهت إلى وجوده ، إذ كانت تلتفت إليه برأسها في محاولاتٍ متكررةٍ ومضطربة . وقد لاحظ جرنجوار التكشيرةَ التي كانت تنظر فيها إليه ، فقد كان فيها شيء من الاحتقار والسخرية .

ووَسَط الظلام ، ميّز جرنجوار الغجريّة وهي تتخبّط في أذرع رجلين يجتهدان في إخمادِ صرَخاتها . أما العنزةُ المسكينةُ فكانت تثغو مذعورة .

وقال جرنجوار صارخاً : « إلينا ، يا سادةَ الحراسة » ،

ثم تقدّم بجرأة ، والتفت إلى أحـد الرجلين ، فإذا بـه كوازيمودو المخيف .

لم يهرب جرنجوار ، لكنّه لم يتقدمْ خطوة واحـدة بعد أن رأى الأحدب . ثم اقترب الأحدبُ منه ، وألقى به أرضاً على أربعِ خُطُواتٍ منه ، وانطلق سريعاً يحملُ الفتاة في الظلام ، في حين كانت الفجريّة تصرخ : « إلى المجرم ! إلى المجرم » !

وانطلق صوتُ أحد قواد رماة الحرس الملكي يقول : « قفا أيّها البائسان ، واتركا لي هذه الفاجرة » . ثم هجم وسيفُه في يده ، وانتزع الفجريّة من يدي كوازيمودو ، ووضعها على سرج حصانه . وحاول الأحدبُ المخيفُ أن يسترجع ضحيته ، لكنّ كتيبةً من الحرس الملكي كانت تقوم بالحراسـة ، ألقت عليـه القبضَ وقيّدته ، فأخـذ يزمجرُ ، ويعضّ ، دون أن يستطيـعَ التخلصَ مـن قيـوده .

أما رفيقه فقد اختفى وسط المعركة .

وانتصبت الفجريّة ، وأثبتت عينيها في جمالِ الفارسِ وحُسنِ طَلعته ، وقالت له بصوتٍ رقيق : « ما اسمك أيّها السيّدُ الدركي » ؟



الأحدب هارباً بالفجرية

فأجابها : « القائد فوبوس دي شاتوبار ، في خدمتك يا جميلتي » .

فردّت قائلةله : « شكراً » !

١٠ – في بلاط العجائب

بقي جرنجوار مطروحاً على بلاط الشارع . ثم أخذ يستعيد وعيه شيئاً فشيئاً . وكانت تمر في مخيلته أحلامُ اليقظة ، فقد تذكّر المشهدَ العنيفَ الذي رآه منذ قليل ، وتذكّر الفجريةَ التي كانت تتخبّطُ بين الرجلين . وتذكر أن كوازيمودو كان يرافقُ شخصاً آخر ، كما أن وجه الكاهن المتجهّمَ المتكبّر قد مر غامضاً في ذاكرته . ففكّر قائلا : « إنه لغريب حقاً » !

ثم أخذ يهيمُ على وجهه ، دون غايةٍ مخصوصة ، فاجتاز عدداً من الأزقة ، ومر بمفارقِ طرقٍ مختلفة ، حتى بدا له أنه لم يعد يعرفُ أين هو .

ومرَّ بشحّاذ مُقعَدٍ ، طلب منه المساعدة باللغة الايطالية . لكنّ جرنجوار لم يُعِرْه انتباهَه ، ومضى يمشي ، فصادف متسوّلاً آخرَ مصاباً بعرج شديد ، وبانقطاعٍ في ذراعه . ثم مرّ بشحّاذ آخرَ أعمى ، نحيلِ

الجسم ، له وجهٌ كوجهِ اليهود ، فطلب منه الإحسانَ ، فقال جرنجوار : « يا صديقي ، لقد بعتُ في الأسبوع الماضي آخر قميص لي » .

ولم يكد يقول ذلك حتى أخذ الشحّاذون الثلاثةُ يركضون وراءه : الأعمى ، والكسيحُ ، والأعرج . فلم يكن من جرنجوار إلا أن أسلم رجليه للريح . لكن المتسوّلين كانوا أسرعَ منه ركضاً ، فما إنْ بلغ نهايةَ زقاقٍ طويلٍ حتى ألقوا القبضَ عليه .

قال الشاعر مذعوراً : « أين أنا » ؟

فأجابه شخص رابع : « أنت في بَلاط العجائب » .

فردّدَ جرنجوار : « أقسم بروحي أنني أرى العُمْيَ يُبصرون ، والعُرْجَ يركضون .. أين الربُّ المخلّص » ؟

وأجال الشاعر المسكين النظرَ فيما حوله ، فإذا به حقاً في بَلاط العجائب المخيف : في المنتدى السحريّ الذي يختفي فيه اللصوص ، والمتسوّلون ، والمتشرّدون ، وسَفَلَةُ كلّ الأممِ ، والصعاليكُ ، والمجرمون .

وكان يسمع ضَحِكاتٍ حادّةً ، وصرخاتِ أطفالٍ وأصواتَ نساء . وكان يرى إطاراً قبيحاً من بيوتٍ عتيقةٍ هرمةٍ ، متداعيةِ الشرفات . وبينما هو ينظرُ من

حوله اقترح أحدُ المتسوّلين أن يُنقلَ إلى « الملك »، وأخذت الأصواتُ كلُّها تصرخ : « إلى المَلِك ! إلى المَلِك » !

ونقلوه إلى « ساحة العجائب »، أي إلى حانةِ اللصوص والفَجَرَةِ، حيث كان عددٌ من المناضدِ العَفِنَةِ موضوعاً حول نار كبيرة. وكان بالقرب من النار بِرميلٌ، وفوق البِرميلِ متسوّل : إنه « الملك » على « عرشه ».

وسأل الملك من أعلى برميله : « من هو هذا التافه » ؟

فارتعد جرنجوار حين عرَف أن هذا صوت كلوبان ترويفو الذي كان يطلبُ الصدقةَ من جمهور مسرحيةِ السرّ، في الصباح السّابق. لقد كان كلوبان يحمل شارته الملكية، و« تاجاً » يصعب على المرء أن يميّزه عن قبّعةِ طفل.

وصرخ كلوبان بجرنجوار قائلاً : « ماذا عساك أن تقولَ دفاعاً عن نفسك » ؟

فقال جرنجوار : « دفاعاً عن نفسي ؟ إنني مؤلف ... ».

فقاطعه كلوبان قائلاً : « اسمع أيها التافه. إنكَ أمام حكامٍ ثلاثةٍ أقوياء : أنا الحاكمُ الأعلى لمملكة الأوباش، ودوق مصر وبوهيميا، وامبراطور الجليل.

لقد دخلتَ إلى مملكةِ الأوباش دون أن تكونَ واحداً منا، فانتهكتَ حُرمةَ امتيازاتِ مدينتِنا. وإذن يجب أن تُعاقَبَ إلا إنْ كنتَ لصاً، أو متسوّلا أو متشرّداً. هل أنت واحدٌ من هؤلاء » ؟

قال جرنجوار : « أنا آسِف جداً، فليس لي مثل هذا الشرف. إنني مؤلّف ... ».

فصرخ كلوبان : « يكفي » ! إنك ستُشنق. فنحن نعامِلكم عندنا كما تعاملوننا عندكم. إن القانونَ الذي تدينون اللصوص به هناك، هو نفسه الذي تدانون به هنا ».

فقال جرنجوار : « سادتي الأباطرةُ والملوك ! إنني أدعى بطرس جرنجوار، وإنني الشاعر الذي مثّلتُ المسرحية في بهو القصر الكبير ».

قال كلوبان : « هذا أنت ! أيها المعلّم ! وهل ما ذكرته مبرّرٌ لعدم شنقك هذا المساء، وقد أضجرتَنا في الصباح ».

وحاول جرنجوار أن يتخلّص من المأزقِ هذا، فقال : « إنني لا أرى مانعاً من تصنيف الشعراء في طبقةِ اللصوصِ والمتشرّدين. لقد كان كثيرٌ من الشعراءِ متشرّدينَ نحو هوميروس و ... ».

فقاطعه كلوبان : « اسمع ! أنا لا أرى ما يمنع شنقك . ولكن سأمنحك فرصة : هل تريد أن تكون واحداً منّا » ؟

فقال جرنجوار بصوتٍ مرتفعٍ ممتلىء : « نعم أريد ذلك بالتأكيد » .

فقال كلوبان : « هل توافق على أن تكون لصاً من مملكة الأوباش وقاطعَ طريق من عصابتنا ؟ انني ألفت نظرك إلى أن نصيبك من الشنق في حالِ موافقتك لا يقل عن نصيبك منه الآن ... إلا أن الشنق في حال موافقتك سيكون فيما بعد » .

فقال جرنجوار : « لتكن مشيئةُ الله إذاً .. أنا موافقٌ ، وأريد أن أكون واحداً منكم » .

فصرخ كلوبان : « لكن الإرادةَ ليست كل شيء » .

وسُمع في الوقت نفسه قرعُ أجراس . لقد كان هذا صادراً من تمثال خشبيّ كبيرٍ عُلّقت الأجراسُ الصغيرةُ عليه . وهنا أشار كلوبان إلى التمثال وقال لجرنجوار : « يجب عليك أن تنتصب على طرف قدمك ، فتبلغَ جيبَ التمثال ، وتبحثَ فيها ، ثم تخرجَ محفظةً موجودة فيها . فإن فعلتَ ذلك كلّه دون أن نسمع طنين أي جرس من الأجراس ، أصبحتَ واحداً من النشالين اللصوص .

ثم لا نزيد بعد ذلك على جَلدك ثمانية أيام متتالية » .

قال جرنجوار : « وإن طنّ أحدُ الأجراس » .

فأجابه كلوبان : « نشنقك .. هل فهمت » ؟

وراحت عصابةُ الأوباشِ تصفّق ، فلم يجد جرنجوار من المحاولةِ بداً ، فعزم على ركوبِ الخطر ، فرفع قدمه اليسرى ، ومدّ ذراعه ، ولكنّه بينما كان يلمس التمثالَ تأرجح جسدُه ، فسقط فوق التمثالِ ، وقد أصمّه الطنينُ الرهيبُ الذي انبعث من الأجراس . وعندئذ صرخ كلوبان : « اشنقوه » !

وأخذ الرجال يستعدّون لشنق الشاعر ، حين ظهرت مفاجأةٌ لم تكن تخطرُ للشاعرِ ، فقد قال كلوبان لرجالِه : « انتظروا قليلاً ! لقد كِدت أنسى . لقد جرتِ العادةُ عندنا على ألا نشنق رجلاً إلا بعد أن نسألَ إن كانت إحدى النساء ترغب في الزواج منه . أيها الرفيقُ ، هذه فرصتُك الأخيرة . يجب أن تتزوّجَ نشّالةً أو .. تُشنق » .

وتنفّس جرنجوار . غير أن النشالاتِ كن قليلات التأثرِ أمام هذا الاقتراح ، وأخذ بعضُهن يصرخ : « لا ! لا ! أشنقوه » !

وفي هذه الأثناء خرجت ثلاثةٌ منهن من صفوف الجمهور ،

فاستعرضته ، فرفضنه الأولى والثانية . ولما جاءت الثالثة تنظر إلى المسكين ، قال لها بصوت منخفض : « انقذيني » . لقد كانت آخرَ أملٍ له . لكنها بعد أن رأت هزاله وفقره رفضته كرفيقتيها .

فقال كلوبان : « أيها الرفيق ، إنك شقيٌّ بائس » . وفي هذه البرهة ارتفع صريخٌ بين الاوباش : « الاسميرالدا ! الاسميرالدا » !

لقد كانت الغجرية هناك ، فاقتربت من كلوبان ، ومعها عنزتها دجالي ، وقالت بوقار : « هل ستشنقون هذا الرجل » ؟

فأجابها : « نعم ، يا أختاه ، إلا إذا قبلتِ به زوجاً لك » .

وتحركت شفتها السفلى في تكشيرتها الصغيرة الحلوة ، ثم قالت : « إني آخذه » .

وحمل دوق مصر جرة من الطين إلى الغجرية ، فقدمتها بدورها إلى الشاعر وقالت له : « إرمِ بها أرضاً » !

وتحطمت الجرة ، وقال دوق مصر للشاعر وللغجرية : « إنكما زوجان لأربع سنوات .. إذهبا » !

١١ – ليلة عرس

وجد شاعرنا نفسه ، خلال وقتٍ قصيرٍ في غرفةٍ صغيرةٍ مقببةٍ ، محكمةِ الإغلاقِ ، بالغةِ الدفءِ .

لقد كان في هذه المغامرةِ شيءٌ من السحر بالنسبة له . أما الفتاةُ الشابةُ فلم تكن باديةَ الاهتمام به ، أو حتى الانتباه إليه ! كانت تروح وتجيء ، وتحركُ بعضَ المقاعدِ ، أو تتحدثُ مع عنزتها ، والشاعر يتأملها ملياً ، ويفكر في مجرى الحوادثِ التي مرت عليه .

ثم نهض ووقف أمامَ الغجرية ، وأحاطَ قوامها بذراعيه ، في سذاجةٍ تامةٍ ، فانزلقَ جسدُ الفتاةِ من بين يديه ، وقفزت قفزةً إلى الطرف الآخر من الغرفة ، وقد أمسكت بيدها خنجراً صغيراً ، وقالت له : « يبدو أنك إنسانٌ غريبٌ وشديدُ الجرأة » .

فقال جرنجوار مبتسما : « عفواً يا آنستي ، ولكن لِمَ اتخذتني زوجاً لك » ؟

– « هل كان يجب أن أتركك تُشنق » ؟

– « إذاً لم تريدي إلا إنقاذي » ؟ !

ثم صمتا . وبعد قليل قال لها : « أعدك بألا أقتربَ منك .. ولكن أعطيني ما أتعشاه ... »

ولم تجبِ الفجريّةُ، بل وضعت أمامه قطعةً من الشحمِ، وبعض التفاحِ وكوباً من النبيذ.

وبعد ان انتهى جرنجوار من طعامِه، نظر إلى الفتاة، التي كانت تُطعم عنزتها، وقال: « إذن لا تريدينني زوجاً لك »؟

— « كلا ».

— « ولا تريدينني صديقاً لك »؟

— « ربّما ».

— « وهل تعرفين ما تعنيه الصداقة »؟

— « نعم.. إنها أن نكونَ أخاً وأختاً، أي روحين تتجاورانِ ولا تتداخلان.. أما الحبُّ، فهو أن يصيرَ الرجلُ والمرأةُ واحداً فقط.. إنه السماء ».

— « وإذن كيف يجب أن أكونَ حتى أبلغ موضِعَ الإعجابِ فيك »؟

— « يجب أن تكونَ رجلا. ولن يسعني أن أحبَّ إلا الرجل القادرَ على حمايتي ».

واحمرَّ وجهُ جرنجوار، واعتبر التلميحَ هذا إشارةً إلى ما حدث عندما حاول الرجلانِ أن يخطفاها. ثم سألها:

« ولكن كيف صنعتِ حتّى تخلّصتِ من مخالبِ كوازيمودو »؟

وجعلها هذا السؤالُ تقشعرُ من الهول، فقالت: « يا لـلأحدبِ الرهيب »! وغطّت وجهَها في غمرةٍ عنيفةٍ من الاضطراب.

ثم أخرجت من صدرها شيئاً يشبه الكيس الصغير، مستطيلا معلّقاً في عنُقِها بسلسلة، وتصدر عنه رائحةٌ قويّةٌ من الكافور، وتغطّيه قطعةٌ من الحريرِ الأخضر، في وَسَطه بِلّورةٌ خضراءُ شبيهةٌ بالزُّمُرُّد.

وسألها جرنجوار: « ماذا تعني كلمة الاسميرالدا »؟

— « لست أدري. أظنها من اللغةِ المصريّةِ ».

— « لقد كنتُ أشك في ذلك. إنكِ لستِ من فرنسا ».

— « لست أدري ».

— « ومتى أتيتِ إلى فرنسا »؟

— « كنت صغيرةً جداً ».

ثم أخذ يقُص عليها قصة حياته، وقال لها إن اسمَه بطرس جرنجوار. لكنه لاحظ أنها كانت تقولُ في صوتٍ منخفض: « فوبوس.. فوبوس »، وسألته عن

معنى هذه الكلمة فقال لها : « إنها كلمة لاتينيةٌ تعني الشمس » .

فأردفت معجبَة : « الشمس » .

فقال : « لقد كان اسمَ أحدِ الرماةِ وكان إلهاً » .

فأخذت تقول : « إله » ؟ وفي لهجتِها شيءٌ يبعث على التفكير .

١٢ ـ الارواح الطيبة

كان ذلك قبل ستةَ عشرَ عاماً من الزمنِ الذي جرت فيه قصتّنا هذه . لقد وُضعَ في صباحِ أحدِ الأيّامِ ، الطفلُ كوازيمودو ، تجاه تمثالِ القديسِ كريستوفر الكبير . لقد جرت العادة أن يوضع الاطفالُ اللقطاء على هذا السرير على مشهد من الجمهور المحسن ، فيأخذُهم من كان يرغبُ فيهم .

وقد بعث وجودُ هذا الطفل فضولَ عددٍ غيرِ قليلٍ من الناس ، تجمعوا حول السرير . وتقدّمت منه إحدى الأرامل ، لأنه كان يبكي ويتلوّى فوق السرير . وصرختِ الأرملةُ قائلة : « ما هذا يا أختاه » ؟

فتقدمت النساء نحوَه ودُهشن دهشتَها فقالت إحداهن :

« إنه ليس طفلاً ، بل قردٌ » ، وقالت أخرى : « إنه معجزة » ، وقالت ثالثة : « إنه وحشٌ حقيقيٌ ، مقيت ومكروه » .

الواقع أن هذا الوحشَ الصغيرَ لم يكن حديثَ الولادة . وكان رأسُه خارجاً من الكيسِ الذي يغطّيه ، وقد بدت عينُه الوحيدة ، وأسنانُه الغريبة .

وأخيراً قالت إحدى السيّدات : « في الحقيقةِ إنني كنت أظنهم لا يعرضون إلا الأطفالَ هنا . أرجو ألا يطالبَ به أحدٌ مِن الناس » .

ومرّ في ذلك الوقت كاهنٌ عابسُ الوجه ، عريضُ الجبهة ، عميق النظرات . وسمع العجائزَ يقترحن إحراق الطفل ، لأن هذا في رأيهن من صالحِ سكانِ باريس . فتقدّم الكاهنُ وأبعدَ الجمهورَ صامتاً ، وتفحّصَ الوحشَ الصغيرَ ، ثم قال : « إنني أتبنّى هذا الطفل » .

وصرخت إحداهن مذعورة : « لقد سبق أن قلت إن هذا الكاهنَ الشابَّ ، كلود فروللو ، هو رجلُ سِحْر » .

١٣ – كلود فروللو

الواقع أن كلود فروللو لم يكن إنساناً عادياً . كان ينتمي إلى عائلةٍ بورجوازيّة ، وكان والدُه قد أعدّه للكهنوتِ منذ حداثته . فعُلّم قراءة اللاتينيّة ، ونما مع الكتبِ الدينية .

لقد كان طفلاً حزيناً ، وقوراً ، رصيناً ، يدرس بحماسةٍ ، ويتعلّم بسرعةٍ فائقة . ولم يقتصر علمُه على اللاهوتِ ، إذ أنه تعلّم الطبّ ، ودرسَ علمَ الأعشابِ ، وأصبح خبيراً في اللغاتِ والآداب . وعندما بلغ الثامنةَ عشرةَ من عمره أنهى دراستَه ، وكان له هدفٌ واحدٌ في الحياة : المعرفة .

ومات أبوه وأمّه إثر وباءٍ انتشر في باريسَ ، فكان عليه أن يتقبل يُتمَه ، وأن يربّي أخاه جوهان الصغير .

ونمت عاطفتُه نحو أخيه الصغير نمواً فريداً ، وعُني به عنايةً كبيرة ، فأسلمه إلى المُرضعةِ زوجةِ الطحان ، وكان لديها طفلٌ صغيرٌ ترضعه .

نقول كلَّ هذا لنسترجع خيطَ تبنّيه لكوازيمودو . فقد اقتربَ الكاهن من المخلوقِ الصغيرِ الذي كان موضعَ كُرهِ المتجمّعين وتهديدِهم ، وحمل الطفلَ واجداً فيه

البؤسَ عينَه الذي وجده في أخيه الصغير . ونذر في نفسِه أن يربّيَ هذا الطفلَ حباً بأخيه ، بحيث يكونُ في هذا الإحسان ما يكفّر عن سيّئاتِ جوهان الصغير في مستقبَلِ أيّامِه .

١٤ – قارع أجراس نوتردام

وهكذا أصبح كوازيمودو شاباً مكتمِلَ النضجِ عام ١٤٨٢ . وأصبح قبل ذلك بسنواتٍ ، قارعَ أجراسِ كنيسةِ نوتردام ، بفضل كلود فروللو ، أبيه بالتبنّي .

لقد تعوّد هذا البائسُ ألا يرى في العالمِ شيئاً وراء الجُدران الدينيّة التي أظلّته ، وهو الذي انفصل عن العالمِ بحاجزين كأنّهما القدر : مولدِه المجهول ، وطبيعتِه البشعة . فكانت نوتردام ، بالنسبة إليه ، المنزلَ ، والوطنَ ، والعالم .

وقد أصابته عاهةٌ جديدةٌ بعد أن أصبح قارعَ الأجراسِ في الرابعةَ عشرةَ من عمره ، فقد مزّقتِ الأجراسُ طبلةَ أذُنيه ، فأصبح مصاباً بالصمّ . وهكذا أُغلقَ البابُ الوحيدُ الذي كانت الطبيعةُ قد تركته له مفتوحاً على العالم .

وبانغلاق هذا الباب ، هبطت نفسُه في ليلٍ عميقٍ ،

وأصبحت كآبته مستعصية على الشفاء ، وصار العالمُ الخارجيُّ يبدو له أكثرَ بُعداً مما هو بالنسبةِ إليه . لكنه كان قوياً جبّاراً ، وخبيثاً ، يحملُ الحقدَ في نفسه على البَشَر ، كما حملوه عليه منذ خطواتِه الأولى ، حين جعلوه يشعرُ بأنه مرذولٌ ومُهانٌ ، وغيرُ مرغوبٍ فيه .

وكان الصوتُ الوحيدُ الذي كان يستطيعُ أن يسمعَه هو صوتُ الأجراسِ ، ولهذا كان صوتُ الجرسِ الكبير أحبَّ الأصواتِ إليه . وكان وجودُه في الكنيسة ، وقرعُه أجراسها ، يعطي المكانَ حياةً تنتشرُ فيه انتشاراً رائعاً مليئاً بالحركة . أما الناسُ فلم يكونوا يرونه إلا قزماً غريباً يتسلّقُ برأسِه الكبيرِ ، وأطرافِه المشوّهةِ ، إلى الأجراسِ ، فيقرعُها عند صلاةِ العصرِ أو الغروب .

ومع كل خُبثه ، كان يستثني مخلوقاً واحداً من دون الناسِ فلا يصيبُه بحِقده وبخبثِه ، بل يحبه كما يحبُّ الكاتدرائية أو أكثر .. إنه كلود فرولو .

والأمرُ بسيطٌ جداً . فكلود فرولو هو الذي التقطه ، وتبنّاه ، وغذّاه ، وربّاه . وكلود فرولو هو ملاذُه الوحيد للتخلّصِ من الأطفالِ الأشرارِ الذين كانوا يلحقون به . ثم إنه هو الذي جعله قارعاً للأجراس . وهل تعرف ما معنى أن يكون كوازيمودو قارعاً للأجراس ؟

إنه أن يُعطى روميو حبيبتَه جولييت .

لقد كان عِرفانُ كوازيمودو لصنيع الكاهن كبيراً . ونستطيع أن نقولَ إنه كان يحبُّ سيِّدَه ، كما لم يحبَّ كلبٌ أو حصانٌ أو فيلٌ سيِّدَه أبداً .

وفي عام ١٤٨٢ ، كان كوازيمودو قد بلغ العشرين من عمرِه تقريباً ، وكان كلود في السادسةِ والثلاثين ، وقد أصبح كاهناً رصيناً ، ومساعداً لأسقفِ باريسِ ، ورئيساً لمئةٍ وستّينَ من الكهنةِ الريفيين .

إلا أن كلود فرولو لم ينثنِ في تلك الأثناء عن العلمِ ، أو عن تربيةِ أخيه الصغير . وقد كان يخالطُ شيءٌ من المرارةِ الأشياءَ الحلوةَ في حياته . فالصغيرُ — جوهان فرولو — الملقّبُ بالطاحونةِ نسبةً إلى المكان الذي أرضع فيه ، لم يكن قد نما في الاتجاه الذي أراده كلود له . فقد كان جوهان شديدَ الكسلِ ، والجهلِ ، والفجور . كان شيطاناً حقيقياً يبعث التقطيبَ في حاجبي أخيه . فكان يحرّضُ أصدقاءه على سرقةِ الحانات ، أو على ضرب شخصٍ ما ، فكان يُشيع الأسى في نفسِ أخيه الكاهن .

وبما أن الكاهنَ كان قد اجتاز علومَه الشرعيةَ والموضوعيّة ، فقد اندفع إلى ما وراء ذلك ، للتعرّف

إلى علمِ النجوم ، وعلمِ الكيمياء ، وتحويلِ المعادنِ إلى ذهب . وقد شاهده الناس مرةً يدخلُ منزلاً صغيراً خلا بموتِ صاحبه ، ويقلّبُ الأرض ، ويفحصُ ترابها ، كأنه يبحث عن الحَجَرِ الفلسفيّ .

وقد انتشر بين الناسِ أنه كان يزاولُ السِّحر . وشجّعهم على ذلك الاعتقادِ أن الكاهنَ كان يعيشُ حياةَ عزلةٍ في حجرةٍ صغيرةٍ قائمةٍ بين البرجين في الكنيسة ، وأنه كان يحتفظُ بكوازيمودو ، الذي كان في نظر الشعب شيطاناً يناسبُ كلود فرْوللو الساحر .

ولهذا كان الكاهن يتعرّض لمضايقاتِ الناس أحياناً ، فقد تقتربُ منه إحدى الجميلات ، وتغني أمامه أغنيةً ساخرةً متهكّمة . فإن خرج كوازيمودو معه ، كان الأطفالُ يتبعونهما ، ويجدون لذة فائقة في غرزِ الدبابيسِ في حدَبَةِ كوازيمودو .

١٥ — محاكمة كوازيمودو

كان القاضي فلوريان يتصفّح ملفّ الشكوى المقدّمةِ ضدّ كوازيمودو . لقد كان القاضي مصاباً بالصَّمم ، لكنه كان يحاولُ أن يخفيَ هذه الحقيقةَ عن الناس ، فيدرس

ملفّ القضيةِ قبل بدء المحاكمةِ ، حتى يكونَ على بيّنة من اسم المتّهمِ ، وعمرِه ، وتفاصيلِ قضيّتِه .

وبعد أن أُدخل كوازيمودو إلى القاعة وسَط اشمئزازِ الحاضرين ، وبينهم جوهان فرولو ، بدأَ التحقيقُ معه ، فسأله القاضي : « ما اسمك » ؟ فلم يسمع كوازيمودو شيئاً بسببِ صممِه . وظنّ القاضي أن المتّهمَ قد أجاب ، جهلاً منه بصممه ، فأردف : « هل هذا هو عمرُك » ؟ فسكت كوازيمودو أيضاً ، واعتقد القاضي أن المتهمَ راض قانع .

وشاع بين الناس التهامسُ وتبادلُ النظرات .

وتابع القاضي يقول : « إنّك متّهَمٌ بإثارةِ الاضطراب ليلاً ، وبالاعتداء على امرأة مجنونة ، وبعصيان الرماة من حرس الملك المعظّم . فما هو ردُّك على هذا ؟ أيها الكاتب ، هل سجّلتَ أقوالَ المتّهم كلّها » ؟

وانفجرت بعد السؤال الأخير سلسلةٌ من القهقهاتِ ، ومع ذلك لم يستطعْ كلٌّ من القاضي وكوازيمودو أن يسمعَ شيئاً منها . والتفت كوازيمودو بازدراء وهو يحرّك حدَبَتَه ، بينما اعتقد القاضي أن الناسَ قد ضحكوا لصدورِ جوابٍ وقحٍ من المتّهَم ، فحدجه بنظرةٍ غاضبة ثائرة .

ثم دخـــل روبير داستوتفيـل قاضي باريس الأوّل ، فقطّب حاجبيه ، ثم وجّه كلامــــه إلى المتّهم : « ما الذي صنعت حتى جيء بك إلى هنا » ؟ فظن كوازيمودو أن القاضي يسأله عن اسمه ، فقطع حبلَ الصمتِ بصوته المبحوح يقول : « كوازيمودو » .

وأردف روبير بعد أن انطلقت ضَحِكات الناسِ مرّةً أخرى : « وهل تهزأ بي أيها الأبلهُ » ؟ فأجاب كوازيمودو : « قارعُ أجراسِ كنيسةِ نوتردام » . فازداد غضب روبير وقال : « حكمتُ بضربِك على ظهرك في ساحةٍ من ساحاتِ باريس . أسمعت أيها التافه » ؟ وتابع كوازيمودو المسكين : « إن كنتَ يا سيّدي راغباً في معرفةِ عمري فإنني سأبلغ تمام العشرين في عيد القديس مارتان » .

وهنا انفجر روبير ، الذي لم يعد قادراً على الاحتفاظ بهدوئه فصرخ قائلاً : « أيها الحرسُ ، خذوا هذا الرجلَ واربُطوه إلى وَتِدِ التعذيبِ في ساحة جريف ، ثم اضربوه واتركوه ساعةً بعد ذلك يدور به الوَتد تشهيراً له ، وزرايةً به » .

وسُجّل الحُكْمُ ، وروبان يقول : « إن هذه العقوبةَ ستعلّمُه كيف يمتنعُ عن التعدّي على الناس » .

١٦ ـ قصة كعكة

كانت الساعةُ تدق العاشرةَ صباحاً في ساحة جريف ، ومنظرُ الساحةِ يشير إلى أنّ الصباحَ هو صباحُ العيد ، فالبَلاط مغطّى ببقـايا المحتفلين ، وبفتاتِ أمتعتِهم ، وأشرطتِهم ، وقطراتِ شمع المشاعل . وكان النـاسُ يسترجعون ذكرياتِ العيدِ ، والسفراءِ ، وبابا المجانين .

وعلى زاويةٍ من الرصيفِ كان هناك حجرة صغيرة ذائعةُ الصيتِ في مدينة باريسَ ، بسببِ السيّدةِ رولاند التي أمَرَتْ بحفرها بعد موتِ أبيها في حربٍ صليبيّةٍ ، ولَبِسَتْ ثيابَ الحدادِ ، ثم سَجنتْ نفسَها بقيّة حياتِها في هذه الحُجَيْرَةِ ، بعد أن خصّصت قسماً من أموالِها للمحتاجين ، وقسماً آخر للنساءِ اللواتي يُصَبْنَ بما أصيبت به ، ثم يعتزمن التوبةَ بقيّةَ حياتهن ، فيقضينها في هذه الحُجَيْرَة .

والحقُّ أن هذه الحجيرةَ كانت شيئاً بين البيتِ والقبر . بـل إنها قبرٌ حقيقيٌ تذوب فيـــه شمعةُ الحياةِ قطرةً قطرة .

وفي ذلك اليومِ كانت حجرةُ السيّدةِ رولاند مشغولة . وإذا رغب القـارئُ في أن يتعرّفَ إلى الشاغـــلِ أو الشاغلةِ ، فليس عليه إلا أن يستمعَ إلى حديثِ ثلاثِ

وانطلقت راكضةً فلحقتها الباريسيتان تقولان : « هل تعتقدين حقاً أن الفجريّةَ قد تسرق طفلَكِ ؟ إن خيالكِ طريفٌ حقاً » .

ثم قالت إحداهنّ : « إن الطريفَ أيضاً هو أن الحبيسةَ التي أتينا لنعطيَها هذه الكعكةَ ، تخاف مثلَكِ من الفجريين . ولكن أنتِ يا ماهيات ، لِمَ تهربين هكذا ، فليس لكِ إلا أن تنظري » .

قالت ماهيات الريفيَّة : « إنني لا أحبُّ أن يصيبني ما أصاب باكيت لاشانت فلوري » .

فقالت إحدى رفيقتيها ممسكةً بذراعِها : « هل ستقصّين علينا قصّةَ باكيت هذه » ؟

فأجابت ماهيات : « سأفعل . لقد كان ذلك من ثمانيةَ عشرَ عاماً . فتاةٌ جميلةٌ في الثامنةَ عشرةَ من عمرها ، مات أبوها ، وساءت أحوالُها وأحوالُ أمِّها . وفي صباحِ يومٍ اختفت ، ثم أتت في يومٍ من الأيامِ تزور الكنيسةَ وفي نَحرِها صليبٌ من الذهب » .

فقاطعتها إحدى صديقتيها قائلة : « ولكن ليس في هذه القصةِ شيءٌ يتعلّقُ بالفجريين والأطفال » .

فأردفت ماهيات : « صبراً ! ! فلقد وَضَعَتْ هذه الفتاةُ منذ ستّةَ عشرَ عاماً بنتاً صغيرة . وكم كان فرحُ

نساءٍ كُنّ يأتين من الشاتليه إلى ساحةِ جريف .

كانت اثنتان منهن تلبسان لباسَ بورجوازيّتين غنيّتين . أما الثالثةُ ، وإن لم تكن تقلُّ عنهما تزيُّناً بالملابسِ الدالّةِ على الغنى ، فإن طرازَ زينتِها ، وطريقةَ ارتدائها الملابسَ ، كانا يدلاّن على أنها ريفيّة . وكان مع الثالثةِ طفلٌ يحملُ بيدهِ كعكةً كبيرةً ، ينظرُ إليها أكثرَ مما كان ينظر إلى بلاط الشارع . ولا شك أن مانعاً خطيراً كان يمنعه من أن يقضِمَ الكعكةَ ، فهو يكتفي بتأمُّلِها في رقّةٍ بالغة .

وبينما كنّ يمشين ويتحدّثن صرختِ الريفيّةُ فجأة تقول : « أنظرا إلى هؤلاء الناسِ الذين تجمعوا هناك عند طرَفِ الجسر ! إن في وَسَطهم شيئاً ينظرون إليه » .

فقالت إحدى الباريسيتَيْن : « إنني أسمع صوت طبلٍ صغير . وظنّي أن الاسميرالدا الصغيرةَ هي التي تقدّم سخرياتِها مع عنزتها » . ثم قالت الريفيّة : « أسرعي يا ماهيات ! لقد أتيتِ إلى هنا لتزوري مفاتِن باريس ، فرأيتِ أمسِ الفلاماندينَ ، وعليكِ اليومَ أن تشهدي هذه الفجريّة » .

قالت ماهيات وهي ترجِع من حيث أتت : « غجريَّة ! ليحفظني الله منها ! إنها قد تسرقُ طفلي ! تعاليا » !

هذه البائسة عظيماً . وأرضعتْ طفلتها وخاطت لها بيديها أجملَ الثيابِ وطرّزتْها بأفضلِ الزينة . وكانت الطفلةُ آية من الجمال . كان يجب أن تكون هذه الطفلةُ اليومَ في السادسةَ عشرةَ من عمرِها . تصوروا أن أمّها كانت تخلعُ حذاءَ صغيرتِها وتقبّلُه من شدّةِ حبّها لها . وصباحَ يومٍ وصلتْ إلى المدينة التي تقيمُ فيها الأمُّ وابنتُها مجموعةٌ من الفجر قيل إنها قادمةٌ من مصر عبر بولندا . كان هؤلاءِ الفجرُ يقرأون للناسِ خطوط أكفّهم . وانطلق الناسُ نحوَهم يطلبون منهم كشف مستقبلِهم . وذات يومٍ غدتِ الأمُّ شانت فلوري بطفلتِها ، وقدّمتْها إلى الفجريّاتِ اللاتي أُعجبن بالصغيرة ، وقلْن للأمّ إن طفلتها ستكون مَلِكَةً من الملِكات .

ورجعتِ الأمُّ سعيدةً ، ومدّدت طفلتَها فوق السّرير ، وتركتْ بيتَها مغلقاً نصفَ إغلاقة ، وراحت نحو جارتِها تقصُّ عليها ما قالته الفجريّاتُ لها . ولمّا رَجَعَتِ الأمُّ إلى البيتِ بحثتْ عن ابنتِها فلم تجدْها . وانطلقت المسكينة خارجَ الغرفة ملقيةً نفسَها من فوق السُّلَّم باكيةً ، تنتحبُ وتصرخُ ، ثم تضربُ رأسَها بالجدرانِ وهي تصرخُ : « ابنتي ! أين ابنتي ؟ ومن أخذها » ؟

وكانت إحدى جاراتِها قد رأت غجريّتين تحملانِ شيئاً لا تدري ما هو ، ثم دخلتا إلى بيتِ المرأةِ ،

ورَجَعَتا بعد قليل وقد تركتا شيئاً فيه . ثم سمعتِ الأمُّ صراخَ طفلٍ في البيتِ ، فضحكتْ وصعدتْ السُّلَّم لترى من فيه . أتعرفان ماذا وجدت ؟ لقد رأت شيئاً نحيفاً قبيحاً مشوّهاً بشماً ، فأخذت تصرخ : « هل حوّلتِ الفجريّاتُ ابنتي إلى وحش صغير » ؟ وأسرعت الجاراتُ يحملن الكائنَ الغريبَ الذي كان عمره أربعَ سنوات ، في حين ألقتِ الأمُّ بنفسها فوق حذاءِ ابنتِها الصغير تبكي . لقد كان الحذاء كلّ ما تبقّى لها من ابنتِها » .

وقالت إحدى صديقتيْها بعد سماعِها القصّةَ : « إنها في الحقيقة قصّةٌ رهيبةٌ ، وأنا لم أعد استغربُ خوفَكِ من الفجر . ولكن ألم يُعرفْ مصيرُ الأم » ؟

فأجابتها ماهيات قائلة : « لا أحدَ يعرفُ عنها شيئاً . لقد غابتْ عن الجميع » .

وسألتها الأخرى : « والوحش ؟ ما الذي أصابه » ؟

فقالت : « لقد أبدى الأسقفُ اهتمامَه بهذا الطفلِ الفجريّ ، فباركه ، وأخرج الشيطانَ من جسدِه » .

وهنا قال الطفل : « هل أستطيعُ أن آكل الكعكةَ الآن » ؟ فتذكرتِ النساء الفرضَ الذي من أجله أتين ، وانطلقن إلى الحبيسة .

لقد كانت جالسةً فوق بَلاط تلك الحُجَيْرَة ، وقد أسندت ذقنها فوق ركبتيها اللتين كانت ذراعاها المتقاطعتان تشدانِها إلى صدرِها . كانت كأنها طيفٌ قاتمٌ ، شديدُ الاصفرارِ والجمودِ والتجهُّم . إنها لم تكن تبدو امرأةً أو رجلا ، بل إنها لم تكن تبدو كائناً حياً ، أو صورةً محدَّدة .

وسألت ماهيات صديقتَيها : « ماذا يسمون هذه المرأة » ؟ فقالتا : « الأختَ جودول » . فرددت تقول : « أما أنا فأسمِّيها باكيت لاشانت فلوري » .

واقتربت إحداهن من غرفة الحبيسةِ ، فنادتها ثلاثَ مرّاتٍ ، دون أن تجيبها . ثم اضطربتِ الحبيسةُ فجأةً لما رأتِ الطفلَ ، فصرخت تقول وهي تغطّي وجهها : « يا إلهي أبعدْ عني على الأقلّ أطفالَ الآخرين » !

ثم قدّمنَ لها الكعكة ، وعرضنَ عليها إشعالَ نارٍ لتدفأ ، فرفضتْ ، وقالت إنها لا تأكلُ إلاّ الخبزَ الأسود . ثم طلبت منهنّ شيئاً من الماء .

وبعد قليلٍ اضطربتْ أعضاؤها ، وارتجف صوتها ، ولمعتْ عيناها ، ثم نهضت صارخةً : « احملن هذا الطفل ! ستمرُّ الفجريّةُ بعد حين » ! ثم سقطت أرضاً ، وما لبثتْ أن نهضتْ وهي تصرخ صراخاً أشبه بحشرجةِ

الموت : « أيتها الفجريةُ الملعونة !! أأنتِ التي تناديني ؟ يا سارقةَ الأطفال ! لعنك الله ! ملعونة ! ملعونة » !

١٧ ـ دمعة من أجل قطرة ماء

كان ما تحدّثنا به في الفصل السابق عن الطفلِ وكعكتِه والباريسيتَيْنِ والريفيَّةِ ، يجري في الوقت نفسِه الذي تجري به حوادثُ هذا الفصل . فلقد ذكرنا بأن جماهيرَ الناس قد بدأت تتجمّع في ساحةِ جريف حول وَتِدِ التعذيبِ والمِشنقة .

وأخيراً وصل المُدان مربوطاً إلى مؤخَّرة عربة . وعندما جِيء به مقيَّداً بالحبالِ والأحزمةِ الجلديَّةِ ، ارتفعتْ من بين الجماهير هتافاتٌ ممزوجةٌ بالتعليقات الساخرة . لقد عَرَفَ الناسُ في هذا المتَّهمِ شخصيَّةَ كوازيمودو . كان هذا الجمهورُ الساخرُ اليومَ هو نفسُه الجمهورُ المصفِّقُ لبابا المجانين أمس .

أمّا كوازيمودو فكان هادئاً لا يطرفُ له جفن . كان يستحيل عليه أن يقاومَ أمامَ شدةِ الأربطةِ والأحزمةِ وما فيها من حلقاتٍ حديديَّةٍ تكادُ تنغرسُ في لحمه . فاستسلم إلى جلاديه الذين قادوه فوضعوه فوق اللوحِ

الدائرِ ، على ركبتيْه ، فانقاد طائعاً .

وجُرِّد من قميصِه وسترتِه حتى حزامِه . ولم يكد الجمهورُ يرى حَدَبَةَ كوازيمودو عاريةً ، وصدرَه الكثيفَ الشعر ، حتى عصفت به ضحكاتٌ شديدةٌ عالية . وارتفع صوتُ جوهان فرولو قائلاً : « تعالَوْا فانظروا أيُّها السادةُ والسيِّدات ! إنّه المعلّمُ كوازيمودو قارعُ أجراس أخي كاهن جوزا » . وانطلقت ضحكاتُ الجمهورِ ولا سيّما الأطفالُ والفتيات .

وأخيراً ضرب الجلاّدُ الأرضَ بقدمه ، وبدأت العجلةُ تدور . وتأرجح كوازيمودو تحت أربطتِه وقيودِه ، وقد ضاعف الخوفُ الذي ارتسم في وجهه البَشِعِ ضحكَ الناس وقهقهاتِهم .

وتتابعت لسَعاتُ السَّوْطِ على كوازيمودو ، فأخذ يحاولُ تقطيعَ أربطتِه وقيودِه ، ولكنَّ الأربطةَ والقيود صمدت أمام قوّته . فأغلقَ عينَه الوحيدةَ ، وأحنى رأسَه فوق صدرِه ، واتّخذ هيئةَ الميْت .

وأخيراً أرسلَ أحدُ فرسانِ الشرطة إشارةً بعصاه يعلن بها توقّفَ التعذيب . فجمُدَتِ العَجلَةُ وامتنع الجلاّدُ عن متابعةِ الضرب ، وفتح كوازيمودو عينَه ببطءٍ شديد . وأقبل خادمان فغطّيا جراحَ كوازيمودو

بمراهمَ خاصةٍ ، ثم ألقيا فوقَه ثوباً أصفر .

وبدلَ أن يبعث هذ المنظرُ الشفقةَ في قلوب الموجودين ، أخذ هؤلاءِ يرمونَه بالحجارةِ ، ويصرخونَ متقزّزين : « الاعور ! الأحدب ! الأصم ! الوحش القبيح » ! ولئن كان كوازيمودو أصمَّ ، فإنه كان قادراً على رؤيةِ ما يدور من حولِه ، ومعرفةِ حقدِ الموجودين عليه . فمنهم من كان حاقداً على خبُثِه ، ومنهم من كان حاقداً على قبحِه .. وهذا أشدُّ أنواعِ الحقدِ نُكراً .

ومر بغلٌ يعلوه كاهن وسط المشاهدين ، فبدأتِ الابتسامة تبدو على وجه كوازيمودو طاردةً حقدَه وثورتَه منذ وقع نظره على الكاهنِ مطلاً من بعيد . واقتربَ الكاهنُ ، وعرف كوازيمودو . لكنه ما لبث أن لوى رأسَ بغلِه ، وانطلق بعيداً تخلّصاً من الإهاناتِ والشتائمِ التي كان يُمطِرُ الناس بها هذا المعذّبَ المسكينَ ، كوازيمودو .

لقد كان هذا الكاهنُ دوم كلود فرولو .

ومرت ساعةٌ ونصفُ ساعةٍ ، والمُعذّبُ عُرضةٌ لسوءِ المعاملة والسُّخرية . ثم انتفض المسكين فجأةً في يأسٍ متضاعفٍ ، وقد قطع الصمتَ الذي كان يلتزمُه بعنادٍ

بالغ ، فغطّى بصراخه ضجّةَ الهتافاتِ المنطلقةِ قائلاً : « إليّ بالماء » !

لم يرتفع صوتٌ واحد لينجدَه . ولو وُجد بين المتفرّجين الضاحكين من بعث هذا النداءُ في نفسه عاطفةَ الشفقة ، لما جرؤ على اقتحامِ صفوفِ هؤلاء الأوغادِ ، والوصولِ إليه .

ونقل كوازيمودو نظراتِه بين الناسِ خلالَ دقائقَ ، وكرّر بصوتٍ أشدَّ تمزيقاً للقلوب : « إليّ بالماء » !

والكلُّ يضحك ، ويرميه بالحصى ، ويوجّه إليه الشتائمِ واللعنات .

وفي هذه اللحظات رأى الناس يتباعدون ، وقد بدت في وسَطهم فتاة تلبَس زيّاً غريباً ، ترافقها عنزةٌ صغيرة . وأبرقتْ عينُ كوازيمودو . لقد عرف فيها الفتاةَ التي حاول أمسِ أن يختطفَها . فلم يشكّ في أنّها آتيةٌ لتنتقمَ لنفسِها منه ، فتسومَه من الأذى ما يسومُه الآخرون .

واقتربتِ الفتاة منه دون أن تنبِس ببنتِ شفَة ، ثم نزعت من حزامِها قِربةً صغيرةً ، ووضعت فوّهتَها فوقَ شفتي البائسِ المسكين .

وهنا انحدرت دمعةٌ كبيرةٌ من عين كوازيمودو ،

وانسكبت بطيئةً عبر الوجهِ المشوّه . ولعلها هي الدمعةُ الأولى التي أرسلها هذا البائسُ في حياتِه كلها .

ونسي كوازيمودو أن يشربَ ، لشدّةِ تأثّرِه . وكشّرتِ الفجريّةُ تكشيرتَها الصغيرةَ تعبيراً عن نفادِ صبرِها ، ثم أثبتتْ فوّهةَ القِربة فوقَ فم كوازيمودو ، وهي تبتسم . فشرب جرعاتٍ كبيرةً لشدّةِ عطشِه .

وهنا أثبت الأصمُّ المسكينُ فيها نظرةً عاتبةً ذات حزنٍ فائقٍ لا يوصف . لقد كان المشهدُ مثيراً بل نبيلاً فوقَ وتدِ التعذيب .

وفي هذه الفترة بالذات شاهدت الحبيسةُ تلك الفجريّة واقفةً فوقَ الوتدِ ، فأرسلت نحوَها دعاءَها المتجهم صارخةً : « لعنكِ الله ! لعنكِ الله » !

١٨ – فوبوس

ومضت عدةُ أسابيع . وكان الناسُ في بدايةِ شهرِ آذار ، وقد تجمعتْ فتياتٌ جميلاتٌ تجاه الكاتدرائيّةِ ، يضحكن ويتحدّثن فوق شرفةِ بيتٍ فخم . وكانت أولئك الفتياتُ جميعاً من بيوتٍ غنيّةٍ ، تشهد على ذلك زينتُهنّ وثيابُهنّ .

وقد اجتمعن كلهن في منزل فلور – دي – لي – دي – جوندولوريا ، وأمها . وكان إلى جانب السيدة الأم ، ألويز – دي – جوندولوريا ، التي فقدت زوجها منذ عهد بعيد ، شاب ذو فتوة بهية فخورة . إنه من أولئك الفتيان الذين تتفق النساء كلهن على عظيم إغرائهم وفائق تأثيرهم . لقد كان قائداً من قادة رماة حرس الملك .

ومن السهل أن ندرك من خلال ابتسامة السيدة ألويز وإشاراتها خلال حديثها مع الشاب القائد ، أن الأمر كان يدور حول خطبة معقودة بين الشاب وفلور – دي – لي ، كما أن من السهل أن ندرك من خلال برود الضابط أن ليس في هذه العلاقة حب ، من جانبه على الأقل ، ففي كل وجه تعبير عن شعوره بالحرج والضجر .

وانحنت السيدة نحو الشاب تقول له : « هل رأيت وجهاً مضيئاً رائعاً كوجه خطيبتك ؟ هل هناك فتاة أشد بياضاً وجمالاً منها » ؟

فيجيبها : « لا شك في ذلك » ، وهو يفكر في شيء آخر .

وتقول السيدة له فجأة : « كلمها إذن » ! ثم

تدفعه رفيقة به من منكبيه ، وتوجهه نحوها : « قل لها شيئاً ، لقد أصبحت ذا خجل شديد » .

ويحاول الضابط أن يقترب من فتاته . وأخذ بعد ذلك يحدثها عن شيء كانت تخيطه .

وهنا صرخت إحدى الموجودات : « انظري يا عزيزتي فلور – دي – لي إلى هذه الراقصة الجميلة التي ترقص على بلاط الشارع وتضرب بدفها أمام الفلاحين » .

قالت فلور – دي – لي وهي تتجه إلى الساحة : « إنها مصرية من الغجر » .

أما الشاب الذي لم يكن يشعر بالعاطفة نحو عروسه ، فقد وجد في اتجاهها نحو الشرفة ما ينقذه من الحرج . ثم تأتي إليه العروس قائلة : « يا ابن عمي الجميل ، ألم تحدثني منذ شهرين تقريباً أنك أنقذت فتاة غجرية من بعض اللصوص أثناء الليل » ؟

– « نعم ، أذكر ذلك » .

– « إذن تعال فانظر إلى الراقصة ، لعلها تكون هي التي أنقذتها يا ابن عمي ، فوبوس » .

ويقترب الشاب ليقول لابنة عمه : « نعم ، إنها هي . لقد عرفتها من عنزتها الصغيرة » .

وتصرخ الفتاة ثانيةً لتقول : « من هو هذا الرجلُ الأسودُ الذي يقف هناك في الأعالي » ؟

فتجيبها فلور – دي – لي : « إنـه كاهن جوزا .. إن له عينينِ ثاقبتين » .

وقالت الفتاة : « ما أغربَ نظرتَـه إلى هذه الراقصةِ الصغيرة » !

فقالت فلور – دي – لي : « لتحذرْه هذه الغجريّة ، فإنه لا يحبُّ الفجرَ أبداً » !

ثم تطلب فلور – دي – لي من فوبوس أن يشيرَ إلى الفتاةِ لتصعدَ إليهنّ فيستمتعن برقصِها وفنونِها . وتصفّق الفتياتُ مؤيّداتٍ رفيقتَهنّ . فانحنى الضابط فوقَ حاجزِ الشُّرفة ، ونادى قائلاً : « أيّتها الصغيرة » .

فكفّتِ الصغيرةُ عن الرّقصِ ، واتّجهتْ عبرَ المشاهدين نحو بابِ المنزلِ الذي ناداها فوبوس من أعلى شُرفتِه ، بخُطُواتٍ بريئةٍ ، وتتأرجحُ وفي عينيها نظْرة عُصفورٍ مضطربٍ ينهارُ أمام سِحر الأفعى .

وتبلغ الفتاةُ بابَ الغرفة ، فتشعرُ الفتياتُ أنها منافِسةٌ جديدة . يُدركن هذه الحقيقةَ بالغريزة النّسويّةِ الفائقة .

ويقطعُ الضابطُ حبلَ الصمتِ قائلاً : « أُقسِمُ أنها

مخلوقةٌ ظريفةٌ » ! ثم قال لها فوبوس وهو يتقدّمُ نحوها : « لست أدري أيّتُها الطفلةُ الجميلةُ إن كنتِ قد تعرّفتِ إليَّ ... » .

وتقاطعُه الفتاةُ ، وقد رفعت نحوَه ابتسامةً رقيقةً : « أوه ! نعم » .

فتقول فلور – دي – لي : « إن لها ذاكرةً جيّدة » .

ثم يتابع الضابط : « إنها وقاحةٌ ظاهرةٌ أن يُقدِمَ قارعُ أجراسٍ على اختطافِ فتاةٍ كهذه .. ولكنّه قد نال عقوبةً رادعة » .

قالت الغجريّة : « يا للرجلِ المسكين » .

وظلّتِ الغجريّةُ تنظر إلى الضابطِ نظرةً رقيقةً خجِلةً ، وهي تغضُّ الطّرفَ عن النظراتِ الخبيثةِ والتعليقاتِ الحاقدةِ التي كانت توجّهُها إليها الفتيات .

وصرختِ الأمُّ فجأة : « أيّتها القدّيسةُ العذراء ! ما الذي يتحرّكُ بين ساقيّ » !

إنّها العنزةُ الصغيرة ذات القوائم الذهبيّة .

وأخذت الفتياتُ يطلبن من الغجريّةِ أن تجعلَ عنزتَها تؤدي بعضَ العجائب . فأجابت الغجرية : « إنني لا أفهم ما تَقُلْن » .

– « معجزة » ، سحر » ، عجيبة » من العجائب » .

– « لا أعرفُ شيئاً من هذا » .

وهنا لَحَظَتْ فلور – دي – لي حجاباً معلَّقاً في رقبة العنزة ، فسألت الفجريَّةَ : « ما هذا » .

فأجابتها الفجريّة : « إنه سِرّي » .

– « أريد أن أعرفَ سرَّك هذا » .

ولم تلبث الأمّ أن طردت الفجريّة وعنزتها . فاتّجهت الفجريّةُ نحو البابِ ببطء . ثم التفتت إلى الوراء ، وبدت عيناها مغرورقتين بالدموع ، فصرخ الضابط فوبوس : « إنكِ لن تخرجي هكذا ، دون أن ترقصي . وبالمناسبةِ ، ما اسمك يا جميلتي » ؟

قالت الراقصة : « الأسميرالدا » .

وانفجرتِ الفتياتُ ضاحكاتٍ حين سمعن هذا الاسم الغريب .

وفي هذه الأثناء كانت إحدى الفتياتِ الموجوداتِ قد فكت الحجابَ المعلّقَ في رقبة العنزة ، فإذا فيه أحرفٌ مكتوبٌ كلٌّ منها على مربعٍ خشبي . ولم تكد تفعلُ ذلك حتى رأتِ العنزَة تُقبِل على هذه الأحرفِ فترصُفُها الواحدَ وراءَ الآخرِ في نظامٍ دقيقٍ عجيب . وتكوّنت من مجموعِ الأحرفِ كلمةٌ من الكلمات : فوبوس .

وأدركتِ الراقصةُ حماقةَ عنزتِهـا . فاحمرّ وجهُها خجلاً ، وراحتْ ترتجفُ أمامَ الضابطِ الذي نظر إليها بابتسامةِ رضى ودهشة .

أما الفتياتُ فكنّ يقلن : « فوبوس .. إنه اسم الضابط » . وانفجرت فلور – دي – لي باكيـةً ، ثم صرخت : « إنها ساحرة » . وسمعتْ صوتاً في الداخلِ يقول : « إنها منافِسة » . ثم سقطت فلور مغشيّاً عليها . وصرختِ الأمُّ المذعورةُ : « ابنتي ! ابنتي ! اذهبي يا غجريّةُ إلى جهنّم » !

ولمّت الفجريّةُ أحرفَهـا ورحلتْ مع عنزتِهـا . أما الضابطُ فوبوس ، الذي بقي وحيداً ، فقد تردّد قليلاً ، ثم لحق بالغجرية .

١٩ – الكاهن هو غير الفيلسوف

الواقعُ أن الكاهنَ الذي رأته الفتياتُ مطلاً على الساحةِ من على البرجِ الشمالي ، مثبتاً نظرَه في الغجريّـةِ الراقصةِ هو كلود فروللو نفسُه .

ولا أظن أننا نسينا الحجرةَ الخفيّةَ التي كان يحتفظُ بها الكاهنُ لنفسه في هذا البرج ، والتي يطلُّ منها المرءُ على الجهةِ الشرقيّةِ من خِلال كوّةٍ فيها . كان الكاهنُ قبل

ساعة من كلِّ غروبِ شمسٍ يصعدُ سُلّمَ البرجِ ويحبسُ نفسَه في هذه الحجرةِ الصغيرةِ ، حيث يقضي فيها أحياناً لياليَ كاملةً طويلةً . وفي هذا اليوم ، وبينما كان يضعُ المِفتاحَ ، الذي يحمله دائماً مربوطاً إلى جانبه ، في قفلِ بابها ، بلغته أصداءُ دفِّ الراقصةِ التي كانت آتيةً من ساحة بارفيس . واسترجع الكاهن مِفتاحه ثمّ انطلقَ سريعاً نحو قمّةِ البرجِ ، ووقف ناظراً إلى ساحة بارفيس . لكنه لم يكن ينظر إلا إلى وجهٍ واحد : وجه الفجريّة .

كانت نظراتُه ثابتةً ، ينبثقُ منها لهيبٌ شديد . وكانت تعلو شفتيه ابتسامةٌ متجمّدة .

أمّا الفجريّةُ فكانت ترقصُ نشيطةً ، مرحةً ، سعيدةً ، غيرَ شاعرةٍ بوطأةِ تلك النظراتِ المخيفةِ التي كان يرسلُها الكاهنُ نحوَها .

وكان الناسُ متجمّعين حولَ الفجريّة ، وكان رجلٌ ذو رداءٍ واسعٍ ، أحمرَ وأصفرَ ، يقوم بين وقتٍ وآخرَ ليضبُطَ الدائرةَ المنعقدةَ حولَ الراقصةِ ، ثم يعودُ فيجلسُ فوق كرسيٍّ على خُطُواتٍ قليلةٍ من الراقصةِ ، واضعاً رأسَ العنزةِ فوقَ ركبتيه . لقد كان يبدو هذا الرجلُ رفيقاً لها .

لكن كلود فرولّو كان عاجزاً عن تبيّنِ قسماتِ

وجهِ هذا الرجلِ ، وكان يقولُ مرتعشاً : « من هو هذا الرجل ؟ اقد كنتُ أراها دائماً وحيدة » .

ورأى الكاهنُ كوازيمودو أيضاً مطلاً على الساحة ، غارقاً في تأمّلِه العميقِ ، بحيثُ لم يلحظْ مرور أبيه بالتبنّي . كما كان في عينيه معنىً فريد . وتمتم كلود : « إن هذا شيءٌ عجيبٌ حقاً ! فهل هي الفجريّةُ التي ينظرُ إليها مثلَ هذه النظرة » ؟

ونزل الكاهنُ إلى الساحةِ ، فلم يرَ الفجريّةَ ، التي كانت قد اتّجهتْ نحو بيتٍ مقابلٍ لتؤدّيَ بعضَ رقصاتِها بعد أن نوديَ عليها من على شُرفته . ولم يجدِ الكاهنُ غيرَ الرجلِ ذي الأحمرِ والأصفرِ ، وقد احمرّ وجهُه وبدت أوتارُ عُنقِه ، وبين أسنانه كرسيٌّ ، ربَطَ إليها قطّةً أعارته إياها جارةٌ له ، والقطّةُ تموءُ صارخةً مذعورة .

وصرخ الكاهنُ حين وقع نظرُه على البهلوانيّ : « نوتردام ! ماذا يصنع المعلّمُ بطرس جرنجوار هنا » ؟

ونزلت صرخةُ الكاهن فوق رأسِ البهلوانيِّ الذي أضاع توازنَه فسقطتِ الكرسيُّ والقطّةُ فوقَ رؤوسِ المشاهدين .

ونهض جرنجوار ، فأشارَ إليه الكاهنُ أن يتبعَه .

ولما وصلا إلى الكاتدرائية ، نظر الكاهنُ إليه نظرةً رصينةً وقال : « إنكَ يا جرنجور تمارسُ مهنة جميلة » !

– « إنني أوافقك يا سيّدي على أن الشعرَ والفلسفةَ خيرٌ من حملِ كرسيٍّ بأسناني ، ولكن ماذا تريدُني أن أصنعَ حتى أحصلَ على طعامي . لقد علّمني عددٌ من أصدقائي الصعاليكُ بعضَ الألعابِ التي أكسبُ منها قوتَ يومي » .

– « حسن جداً ، ولكن كيف أصبحتَ رفيقاً لهذه الغجريّةِ الراقصة » ؟

– « إنّها زوجي يا سيّدي » .

واشتعلت عينا الكاهنِ ، وأمسك بجرنجوار قائلاً له : « وهل أصبحتَ أيُّها البائسُ بعيداً من الله بحيث تضعُ يدَكَ على هذه الفتاة » ؟

– « أُقسمُ يا سيّدي أنني لم ألمسْها أبداً » .

– « إذن كيف تقولُ إنها زوجك » ؟

وانطلق جرنجوار يقصُّ على الكاهنِ قصّتَه ، فأخبره بمغامرتِه في بَلاطِ العجائب .

كانت الأسميرالدا في رأي جرنجوار مخلوقاً ظريفاً

وجميلاً . وكان يرى أنها لا تقرأُ الغيبَ للناس ، وهذا يجعلها بعيدةً عن تُهمةِ السّحْر التي كانت توجّه يومئذ ضدَّ الغجريين . وكان جرنجوار يخرجُ مع الغجريّةِ كلَّ صباحٍ ، ويداعبُ عنزَتها ، ثم يرجعُ معها في المساء ، فيقضيان الليلَ تحت سقفٍ واحدٍ ، وقد أغلقتْ حجيرَتها على نفسها .

وذكر جرنجوار للكاهنِ أن العنزةَ تستطيع أن ترتّبَ أحرفَ كلمةِ « فوبوس » ، فقال الكاهنُ : « فوبوس؟ ولِمَ هذا الاسم ؟ » .

– « لست أدري . فقد تكون في الاسمِ هذا قدرةٌ سحريةٌ خفيّة » .

– « هل أنتَ واثق من أنها كلمةٌ فقط ، أو أنها ليست اسماً من الأسماء » ؟

– « لستُ أدري . وهذا شيءٌ لا يعنيني » .

– « حسنٌ جدّاً .. ولكن اقسِمْ لي بأنكَ لم تلمسْ هذه الفتاة بإصبعك » .

– « أقسمُ على ذلك برأسِ أبي ، ولكن اسمح لي أن أسألك لِمَ أردتَ مني هذا القَسَم » ؟

واستحال وجهُ الكاهن أصفرَ ، ثم قال في حَرَج

ظاهرٍ : « أيُّها المعلّمُ بطرس ، إنكَ غيرُ مصابٍ باللعنةِ حتى الآن . أنا مهتمٌ بك ، ولا أريد لك إلا خيراً . فإياك أن تلمس هذه المرأة ، هذا كلُّ شيء » .

وانطلق الكاهنُ تاركاً جرنجوار ، ودخل نحو أشدّ قناطرِ الكاتدرائيّةِ ظلمةً وقتامة .

٢٠ – الاجراس

لاحظ جيرانُ كنيسةِ نوتردام منذُ حادثِ وتيدِ التعذيبِ أن حماسةَ قارعِ الأجراس ، كوازيمودو ، قد فتَرَت فتوراً بالغاً .

لقد كانت تُقرعُ قبل الحادثِ في كل مناسبةٍ ، فتنطلقُ أصواتُها متنوّعةً ، نشيطةً ، متتابعة . أما الكنيسةُ فكانت تفرح دائماً بأجراسِها الكبيرةِ ، وكأنَّ فيها روحاً من الضجّة والحركة .

ثم لم تعدْ لمناسباتِ الأعيادِ والموتِ غيرُ رناتٍ جافةٍ عاريةٍ ، مما كانت تفرِضه الطقوسُ الدينيّة .

وفي صباح يومٍ من الأيّام في عام ١٤٨٢ ، كان عيدُ البِشارة . وراح كوازيمودو يتأمّلُ أجراسَه حزيناً ، ولم

يلبثْ أن استعادَ فرحتَه ، ونسيَ كلَّ شيء ، حتى سَوْطَ الجلاّد ، فأخذ يروحُ ويجيءُ ، ويصفقُ بيديه منتقلاً من حبلٍ إلى آخرَ ، فيخاطبُه ويدلّلُه ويعاتبُه . لقد كان يبدو كأنه قائدُ فرقةٍ موسيقيّةٍ يشرفُ على أعضاءِ فرقتِه .

وفجأةً وقع نظرُه خلال فُرجةٍ في جدارِ برجِ الأجراسِ على فتاةٍ ترتدي ثوباً غريباً ، وقد وقفتْ في ساحةِ الكنيسةِ تبسط بساطاً لها . ثم أتت عنزةٌ صغيرةٌ تجلس فوقه ، وقد تحلق حولها عددٌ من المشاهدين . وجمّدَ هذا المشهدُ حماسةَ كوازيمودو الموسيقيّةَ ، فتوقّفتِ الأجراسُ مرّةً واحدةً ، مثيرةً خيبةَ هواةِ أصواتها .

وتجمّع كوازيمودو وراءَ الفرجةِ مثبتاً نظرةً رقيقةً حالمةً في الراقصة .

٢١ – غرفة كلود فروللو

في صباح يومٍ جميلٍ من أيّامِ الشهرِ نفسِه الذي كان فيه عيدُ البِشارة ، لاحظ صديقُنا الطالبُ الفتى جوهان فروللو أن محفظتَه خاليةٌ تماماً من الدراهمِ

والدوانيق . وجالت في رأسه خاطرةٌ ، فألقى قبعته أرضاً وهو يصرخ : « ليكن ما يكون . سأقصدُ أخي الكاهنَ ، وسأفوزُ منه بعظةٍ ، ولكنني سأفوز معها بقطعةٍ ذهبيّة » .

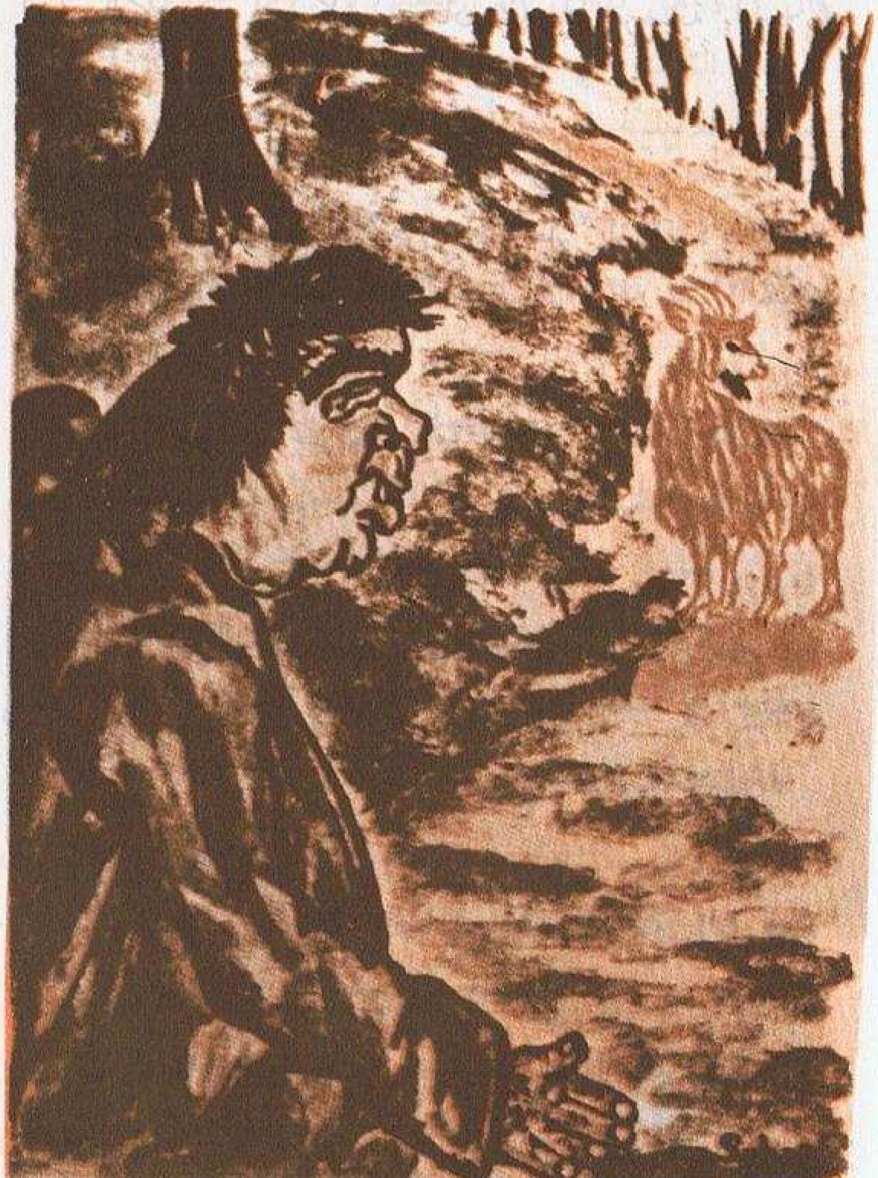
وانطلق إلى الكنيسةِ وسأل أحدَ الخدامِ عن الكاهنِ ، فقال له الخادمُ : « أعتقدُ أنّه في مخبئه من البرج . نصيحتي إليك ألا تُقدِمَ على إزعاجِه إلا إن كنتَ رسولاً من قِبَل البابا أو الملك » .

ومضى جوهان وهو يصفّق قائلاً : « إنها مناسبةٌ رائعةٌ أطّلعُ فيها على مخبئه السرّيّ الشهير » !

وانطلق جوهان فاجتاز العواميدَ الصغيرةَ ، ثمّ تابعَ صعودَه عبر البُرجِ الشماليّ الضيّقِ ، واجتاز قفصَ الأجراسِ ووصل إلى غرفةٍ مفتاحُها في قُفلِه ، فقال : « أوف ! لا بد أن تكونَ الغرفةُ هنا » .

دفع جوهان البابَ قليلاً وأطلّ برأسِه عبر فُرجةِ البابِ ، فرأى أخاه غارقاً وسْط الأوراقِ المكتوبةِ بخطٍّ هيروغليفيٍ . وأخذ يتأمّلُ الغرفةَ الغريبةَ التي خطّت جدرانَها كتاباتٌ عبريّةٌ ، ويونانيّةٌ ، ولاتينيّةٌ ، مختلِطٌ بعضُها ببعض .

كان الطالبُ يراقبُ أخاه في دهشة بالغة . إنه لم يكن



الأحدب لدى رؤيته عنزة الغجرية

يعرف شيئاً عن بحرِ الشّهوَات الذي يتموّجُ في نفسِ أخيه الكاهن . لقد كان جوهان مخدوعاً برصانةِ أخيه ، وببرودتِه الثلجيّة .

وأحدث جوهان بقدميه حركةً في الخارجِ ، وكأنّه وصلَ لتوّه ، فصرخ الكاهنُ من داخلِ الغرفة : « ادخلْ أيّها المعلمُ جاك ! لقد كنتُ انتظرُك ، فتركتُ المفتاحَ في قفلِ الباب » .

ودخل جوهان بجُرأة . أما الكاهنُ فقد اضطرب فوقَ مقعده لما رآه ، فقال : « ماذا ! أهذا أنتَ يا جوهان ؟ ماذا جئتَ تصنعُ هنا » ؟

أجاب الطالبُ وهو يحاولُ جاهداً أن تكونَ له هيئةٌ لائقةٌ مثيرةٌ للشفقة : « لقد جئت يا أخي لأسألك ... » .

— « ماذا » ؟

— « قليلاً من العِظة ، فأنا في أشدّ الحاجةِ إليه » . ولم يجرؤْ على ذكرِ حاجتِه إلى المال .

قال الكاهنُ بلهجةٍ باردة : « أيّها السيّدُ إنني غير مسرورٍ منك أبداً » .

فتنهّد جوهان وقال : « أنا آسفٌ جداً » .

واستدار الكاهن فوق مقعدِه قليلاً نحو جوهان ، ثم قال : « هل تدري أنني أتلقّى كلَّ يومٍ شكاوى ضدّك ؟! ثم أين انتهيتَ في دراساتِك وآدابِك ؟ إنك لا تكادُ تعرفُ اللاتينيّة ، كما أنك تجهلُ السريانيّة » .

— « وهل تحقِدُ عليّ يا أخي الطيّبُ ، فتقابلني بهذا الوجهِ المتجهّمِ ، من أجلِ صفعاتٍ قليلةٍ في معركة مع صبيانِ الحيّ » ؟

— « أين تريدُ أن تصلَ بهذا كلّه » ؟

فأجاب جوهان متشجّعاً : « الحقُّ يا أخي ... أني ... في ... حاجةٍ إلى نقود » .

وفجأةً اتخذ وجهُ الكاهنِ هيئةَ المربّي ، وقال : « أنت تعرف ، يا سيّد جوهان ، أن ما نكسبُه من طاعاتِنا شيءٌ ضئيلٌ جداً » .

فقال جوهان في صبرٍ فائق : « إنني في حاجةِ إلى نقود » .

— « وماذا تريد أن تصنعَ بهذه النقود » ؟

— « ليست القضيّةُ أنني أريد أن أنفقها في الحانات . إن لي صديقَيْن يرغبان في تقديمِ أربطةٍ وثيابٍ إلى طفل أرملةٍ فقيرة .. وفي عزمي أن أكونَ ثالثَ الاثنين »

ولمّا رفض الكاهنُ أن يعطيَ أخاه نقوداً ، قال الأخ : « حسنٌ جداً .. إني سأنطلقُ إلى الحاناتِ .. وسأقاتلُ الناسَ ، وأحطّمُ الأكوابَ والجِرار .. » .

وفي تلك اللحظةِ سمع الكاهنُ حركةً وراء البابِ ، فقال لأخيه : « اسكت ! واختبىء سريعاً تحتَ هذا الموقد ، وإياك أن تتكلمَ أبداً عما ترى وتسمعُ في هذه الغرفة » .

— « بهذه المناسبةِ ، يا أخي كلود ، أعطِني قطعةً ذهبيّة فلا أنبسِ ببنتِ شفة » !

— « اسكت ! إنني أعدك بها » .

— « يجب أن تعطيَني إيّاها الآن » !

قال الكاهن غاضِباً ، وهو يُلقي إليه بقطعتِه : « خذ » !

وتجمّع جوهان داخلَ المَوقد ، وفُتِح الباب .

كان الداخلُ إلى الغرفةِ رجلاً ذا لباسٍ أسودَ ، وهيئةٍ قاتمة . ولم يكن الكاهنُ قد نهض عن مقعدِه لاستقبال الداخلِ إلى غرفتِه ، فأشار إليه بالجلوسِ فوق مقعدٍ قريبٍ من الباب . لقد كان القادمُ المعلمَ جاك الذي كان الكاهنُ في انتظاره .

وبعد أن تحدّثا في بعضِ الموضوعات ، قال المعلّم جاك : « متى يسرّك أن ألقيَ القبضَ على الساحرةِ الصغيرة ؟ لقد كِدت أنسى أن أسألك عنها » .

— « أيّةَ ساحرةٍ تعني » ؟

— « هذه الفجريةَ التي لها عنزةٌ مسكونةٌ بالشياطين » .

اصطبغ وجه الكاهنِ بصُفرةٍ شديدة . ثم تمتم يقول : « سأقولُ لك ذلك فيما بعد » . وطلب منه أن يهتمّ بقضيّةِ ساحرٍ آخر .

وبعد صمتٍ ، قال المعلم جاك : « متى يا معلمي ستساعدُني على صُنع الذهب » .

فهزّ الكاهنُ رأسَه ثم قال : « ليس ما نصنعُه بريئاً كلَّ البراءة » .

وفجأة سمع المعلّم جاك مضغَ طعامٍ آتياً من أسفل المَوقِد ، فصرخ : « ما هذا » ؟

إنه الطالبُ الذي ضاق ذَرعاً بمخبئه . فقد توصّل إلى اكتشافِ كسرةِ خبزٍ قديمةٍ مع قطعةٍ من الجبنِ العفنِ ، فراح يأكلُها في غيرِ حذرٍ ، مُحدِثاً ضجّةً كبيرة .

قال الكاهن : « إنها قطةٌ صغيرةٌ تستمتع بافتراسِ فأرة » .

ورضي جاك بهذا التفسيرِ . ثم انصرف هو والكاهنُ خارجاً .

٢٢ - جوهان وفوبوس

انطلق جوهان خارجاً من مخبئه يصرخ : « ها إن القِطّين قد ذهبا ! لقد ضقتُ ذَرعاً بأحاديثهما » !

ثم خطا خطواتٍ قليلةً ، وسمع صوتاً قوياً رناناً ينطلقُ قربه ، فصرخ جوهان : « أقسمُ بحياتي أن هذا المتكلّم هو القائدُ فوبوس » .

وبلغ اسم فوبوس أذني الكاهنِ الذي كان قريباً من المكان .

والواقع أنه كان القائدَ فوبوس . واقترب جوهان منه ، فحيّاه وقال له : « هل تحبُّ أن تأتيَ فنشرب » .

— « أريد ذلك ، ولكنني لا أملكُ نقوداً » .

— « عندي ما نحتاجُ إليه » .

— « ماذا تقول ؟ أرِني ما عندك » !

فأخرج جوهان محفظتَه ، وأراه ما فيها .

فدمدم فوبوس : « يا لله ! إن فيها نقوداً حقيقيّة » !

وانطلق الصديقان فوراً نحو حانةِ « تفاحة حوّاء » .

أما الكاهنُ الذي كان قد سمع اسم « فوبوس » ، فقد لحق بهما . ولم يكن أسهلَ من أن يسمعَ كلَّ ما يقولان ، لأنهما كانا يتحدّثان بصوتٍ مرتفع .

وبلغا مفترقَ شارع ، فسمع دون كلود الضابط يقول للطالب : « لنُعجّلْ خطانا » !

— « ولِمَ العَجَلَةُ يا فوبوس » ؟

— « أخاف أن تراني الفجريّة ذات العنزة » .

— « الاسميرالدا » ؟

— « تماماً يا جوهان . إنني لا أريد أن تقاربَني هذه الفتاةُ في الشارع » .

وهنا رأى الكاهنُ فوبوس يضحك ساخراً ، وينحني فوق أذنِ جوهان ، ويهمس فيها بكلمات ، ثم ينفجرُ ضاحكاً ويَهزّ رأسه في هيئةِ المنتصر

قال جوهان : « أحقٌّ هذا » .

فقال الضابطُ : « قسماً بحياتي .. في هذا المساء » .

— « وهل أنت واثقٌ من أنها ستأتي » ؟

— « ماذا تقولُ يا جوهان ؟ وهل يُشككُ في مثل هذه الأشياء » ؟

٢٣ ـ الكاهن الشرس

كانت حانة « تفاحة حواء » قائمةً في مدينةِ الجامعة . إنها بهوٌ أرضيٌ منخفضٌ واسعٌ ، ذو قبةٍ مركوزةٍ فوق عمودٍ خشبيٍ غليظٍ أصفر .

وهبط الليلُ وبدتِ الحانةُ ممتلئةً بالمشاعلِ الملتهبةِ ، وبأصداءِ الزجاجاتِ ، وبالشتائم .

وفي هذه الأثناء كان يروح ويجيء أمام الحانة الصاخبة رجلٌ ، ينظر إلى داخلها دون انقطاع . وقد تلفّع بمعطفٍ اشتراه منذ قليلٍ من تاجرٍ قريبٍ ، ربّما ليحمي جسدَه من شدة البردِ ، أو ليخفيَ زيّه .

وسُمع فوبوس يلعن العجوزَ صاحبةَ الحانةِ لأنّها رفضت أن تؤجّرَه غرفة . وقال لجوهان : « أرجوك يا جوهان .. إنّك تعلمُ أنني واعدت الصغيرةَ عند جسرِ سان ميشال ، وانني

لا أستطيع مرافقتَها إلا إذا دفعتُ أجرةَ الغرفة . عطِني ولو دانقاً واحداً » !

لكن جوهان الذي كان ثملاً إلى حدٍّ كبير ، رفض ذلك .

وهنا خرج فوبوس من الحانة . أما الرجلُ ذو المعطف فلم يتوقّفْ أبداً عن متابعةِ الضابط .

وانتبه فوبوس أن شخصاً ما يلحقه. لكن القائد كان شجاعاً، ومِقبضُ السيفِ بيده ، فتقدّم نحو الرجلِ ذي المعطف وقال له : « سيدي !! إن كنتَ لصاً ، فاعلم انني من عائلةٍ مفلِسة . فاقصدْ صيداً آخر » !

فقال الرجل : « يا سيّدي فوبوس دي شاتوبار القائد .. » .

قال فوبوس : « يا للشيطان ! كيف تعرفُ اسمي » ؟

فأجاب الرجل ذو المعطف : « أنا لا أعرف اسمك فقط . بل أعرف فتاةً أنّك واعدتَ فتاةً على اللقاءِ في هذه الساعةِ عند فالوردال » .

— « تماما » !

— « واسمُ الفتاة هو .. »

فقاطعه فوبوس قائلاً بدون مبالاة : « الاسميرالدا » .

ولما سمع الرجل هذا الاسمَ هز فوبوسَ من ذراعه هزّاً قوياً وقال : « إنك تكذِب » .

وانتفض فوبوس غاضباً ، لكن الرجلَ بادره بالقول : « أيُّها القائدُ ، غداً أو بعدَ غدٍ ، بعد شهرٍ أو بعد عشرِ سنواتٍ ، ستجدُني مستعداً لقطعِ رقبتك . ولكن اذهب أولاً إلى حيث موعدُكَ » .

فقال فوبوس : « حقاً » وكأنه يراجع نفسه . ثم قـال له : « إنك تبدو رجلا طيباً ، فلنؤجّلْ عراكنا إلى الغد . وإذن أنا ذاهب إلى موعدي » . وهنا حكّ فوبوس طرفَ أُذُنه ثم قال: « آه ! تمهّل كدت أنسى . إنني لا أحملُ فلساً واحداً أدفعُ به أجـرة البيت ، والعجوزُ تطالب بالأجرةِ سلفـاً ، فهي لا تثقُ بي » .

– « هاك ما تدفعه أجرة مبيتك » .

وشعر فوبوس بيد المجهول البـاردةِ تضعُ في يده قطعة نقدية كبيرة . فصرخ قائلاً : « يا إلهي ؟ إنكَ رجلٌ طيّبٌ حقاً » !

قـال الرجل : « على شرطٍ واحد .. خبّئني في زاوية من الزوايا بحيثُ أرى إن كانت المرأة هي حقـاً التي ذكرت اسمها » .

قال فوبوس : « لا ضيرَ من ذلك أبداً . إننا سنشغل غرفةً في سانت – مارت، وفي وسعكَ أن تنظر إلينا عبر كوخ الكلبِ القائمِ إلى جانبِها » .

فردّ الشيخ : « تعالَ إذن » !

وتابعا سَيرهما مسرعَيْن ، فلما وصلا إلى المكانِ قال فوبوس لرفيقه : « سأوصلك أولاً إلى مخبئك ، ثم أنطلق لآتي بالفتـاة التي لا بدّ أن تكون في انتظاري » .

فتح فوبوس بابَ الفندقِ ، وقـال للمسؤولةِ عنه : « أريد غرفة سـانت مـارت » . ثم مدّ إليهـا قطعةً ذهبيّةً لامعة ، فـابتسمت المرأةُ ، وأشارت إلى الرجلين أن يتبعاهـا ، ثم ارتقتْ درجاتِ السلّمِ الخشبيّةَ التي أمامها . أما فوبوس فقد فتح باباً ينتهي بمن يجتازه إلى حُجيْرَةٍ صغيرةٍ قذرةٍ ، ثم قال لرفيقـه : « إدخل إلى هنـا يا عزيزي » . فأطـاع الرجـل ذو المعطف دون أن يجيب بكلمةٍ واحدة .

وطبيعيٌّ أن هذا الرجلَ لم يكن غيرَ الكاهن كلود فروللو.

ومرّ ربعُ سـاعةٍ على الكاهنِ ، وهـو ينتظر في كـوخ الكلب . ثم سمع وقعَ خطى فوق درجات السُلّم الخشبيّة . لقد كان في بابِ غرفتِه العفنِ ، شقٌّ عريضٌ ألصق به وجهه . وبهذه الطريقة كان يستطيع أن يرى كل مـا يحدثُ في الغرفةِ المجاورةِ : لقد رأى الاسميرالدا .

وكان يدورُ الحديثُ التالي بين القائدِ والغجريّة :

– « لا تحتقرْني يا سيّدي فوبوس ، فأنا أشعرُ بسوءِ ما أصنع » .

– « ولِمَ أحتقرُكِ يا طفلتي الجميلة » ؟

– « لأنني تبعتك » . ثم قالت في خفرٍ شديد : « إنني أحبك .. » .

فقال القائدُ في حماسةٍ عارمة : « هل تحبينني » ؟

ثم أحاط خصرَها بذراعيه . ورآه الكاهنُ ، فوضع طرفَ أنملتِه على رأس خنجرٍ كان يخبئه في صدرِه .

ثم قال فوبوس : « إن جسدي ، ودمي ، وروحي ، كلّها بين يديك .. أحبكِ ، ولم أحبَّ سواكِ من قبل قطّ » .

وهنا رفعت الغجريّة عينيها نحو السقفِ الوسخِ ، وقالت بسعادةٍ ملائكية : « أوه ! هذه هي الساعةُ التي يحلو الموتُ فيها » .

– « سترين كم أحبُّكِ .. سيكون لنا بيتٌ صغيرٌ جميلٌ ، أجملك فيها أسعدَ مخلوقة . وسوف استعرضُ جنودي الرماةَ تحتَ نافذتِكِ » .

– « فلنتزوّجْ إذن » !

فقال فوبوس مندهشاً : « ما هذا الجنونُ أيتها المحبّةُ الجميلة ؟ إن الزواجَ شيءٌ كبير » !

فاصفرَّ وجهُ الفتاةِ ، وتركت رأسَها يهبطُ حزيناً فوق صدرِها . لكن القائدَ بادرها يقول : « ما الذي تلبَسينه في نحرِكِ » ؟

فقالت بحماسةٍ : « لا تلمسْها . إنها حارستي . إنها هي التي ستتيحُ لي أن أجدَ عائلتي .. وأمّي المسكينة .. ولكن ما يعنيني من أمـي ؟ أنا أحبُّكَ ، وسأكون أسعدَ النساءِ ، وأشدّهن فخراً بـك . بل سأكون خادمةً لكَ » .

وألقت ذراعيها حول عنقِ الضابط . وفجأةً رأت ، فوق رأسِ فوبوس ، رأساً آخرَ ، وبجانب هذا الرأسِ يدٌ تحمل خنجراً مسنوناً . لقـد كان الكاهنُ بوجهِـه وبيدِهِ . كسر البابَ ودخل إلى الغرفـة . ورأتِ الفتاةُ الخنجر يهبـطُ فوق رأس القائد . لقد عجزت حتى عن الصراخ .

وسقط الضابطُ أرضاً .

أما هي ، فقد أغمي عليها . ولما استفاقت وجدت نفسَها محاطةً بجنودِ الحراسةِ ، ثم حُملَ القائدُ غريقاً

في دمِه ، واختفى الكاهن . وسمعت قائلاً من حولها يقول : « إنها ساحرةٌ طمنت قائداً من رجالِ الحرس » .

٢٤ ـ القطعة الذهبية تتحول الى ورقة جافة

كان جرنجوار وبَلاط المجائب كلُّه في قلقٍ كبيرٍ على مصيرِ الأسميرالدا . فقد اختفتِ الغجريّةُ في ليلةٍ من الليالي ، وانقطعت أخبارُها عنهم .

وكان حزنُ جرنجوار عظيماً ، فهزلَ بسببِه ، وعجزَ عن تفسيرِ اختفائها . وبينما هو يسير يوماً أمامَ قصرِ العدالةِ ، رأى جماعةً من الناس متجمهرة أمام أبوابِ القصر ، فسأل أحدَهم : « ماذا هنا » .

فأجابه الفتى : « إنهم يحاكمون فتاةً يقال إنها ساحرة .. وقد تدخّل كل من الأسقف ومحكمة التفتيش ، وكذلك أخي ، كاهن جوزا .. لقد كنتُ راغباً بالاتصال بـه ، فلم أستطع .. إنني بحاجةٍ إلى النقود » .

فقال جرنجوار : « إنني آسفٌ يا سيّدي . لو كان في جيبي نقودٌ لأعطيتُكَ إياها » . ولم يجرؤْ على إخبار الفتى عن علاقتِه بأخيه الكاهن .

ومضى الفتى في طريقِه ، وتوجّه جرنجوار يتبعُ الجمهورَ الذي يصعد أفرادُه سُلّمَ البهوِ الكبيرِ . وسأل جرنجوار واحداً من الحاضرين : « من يحاكمون هنا ؟ إني لا أرى متهماً » .

فردّ الرجل قائلاً : « إنها امرأةٌ يا سيّدي . إنها هناك بين الحِراب ، تحجبُها رؤوسُ المشاهدين » .

ووقفت امرأةٌ عجوز في وَسَط البهو ، وكانت تقول : « سادتي ! القضيّةُ صحيحة . لقد جاءني رجلانِ ، أحدُهما أسودُ ، والآخرُ ضابطٌ جميل . ثم أعطاني الضابطُ قطعةً ذهبيةً ليستأجرَ غرفة . ثم خرج ليرجِعَ بعد قليل ومعه فتاةٌ جميلةٌ تصطحب معها تيساً .. أسودَ أو أبيض .. لم أعد أذكر . وصعدتِ الفتاةُ وتيسها مع الضابطِ إلى الغرفة . وتركتُهما وحيدين مع التيس ، وانصرفتُ إلى عملي . وفجأةً سمعت صراخاً ، وصدى سقوطِ جسمٍ فوقَ أرض الغرفة ، ونافذةً تُفتح . ورأيتُ شبحاً يتزيا بزيِّ كاهنٍ يسبحُ متجهاً نحو المدينة القديمة ... فإنّ أسوأ ما في الأمرِ أنني عندما عُدتُ صباحَ اليومِ التالي لآخذَ القطعةَ الذهبيّةَ ، وجدتُ ورقةً جافّة » .

وانتشرت بين الناس دمدمةٌ مذعورة . وقال جار لجرنجوار : « إن في هذا الشبحِ ، وفي ذاك التيسِ ما

ينبىء عن السحر » . وأضاف آخر : « والورقةُ الجافّة أيضاً » .

ونهض القاضي يقول : « هدوءاً أيُّها السادة ! أرجو ألا يغيبَ عن بالكم أنه قد وُجد مع المتّهَمة خنجر » . ثم سأل العجوزَ : « هل أتيتِ بالورقة الجافّة التي وجدتِها متحوّلة عن القطعة الذهبيّة » ؟

أجابت : « نعم » . وأخرجتْها ، ففحصها الحاكمون ، وقال أحدهم : « إنها برهانٌ جديد على ثبوتِ تهمة السحر » .

وقال محامي الملك : « أظن أن هذا الكاهن الذي ذكرتْه الشاهدة هو نفسُ الكاهنِ الشّريرِ الذي يظهر شبحُه بين حينٍ وآخر . أما القطعةُ الذهبيّةُ التي تحوّلت إلى ورقةٍ جافةٍ ، فإنها دون ريبٍ نقدٌ من الجحيم » .

وقد بدا هذا الاستنتاجُ كأنّه قد أزال كلّ لُبسٍ في ذهنِ جرنجوار والآخرين الذين كانوا يشكّون فيما يقال .

وهنا نهضتِ المتهمة ، وجاوز رأسها أفراد الجمهور ، فعرف فيها جرنجوار المذعورُ ، الأسميرالدا .

كانت باهتةً صفراءَ ، تشوّشَ شعرُها ، وازرقّتْ شفتاها .

ثم قالت : « وا أسفاه ! فوبوس ! أين هو ! أخبروني إن كان حياً قبل أن تقتلوني » !

وأجابها الرئيسُ : « اسكتي أيتها المرأة . ليس هذا من شأنِنا هنا » .

ولما ألحّت في السؤالِ ، صرخ محامي الملك : « لقد مات ! فهل أنتِ سعيدة » ؟

وسقطتِ المسكينة فوق مقعدها ، فلا صوتَ ، ولا دموع .

وفي هذه الأثناء أُدخلتِ العنزةُ ، فقالتِ العجوزُ على الفور : « لقد عرفتها .. انها الحيوانُ الكريهُ نفسُه » .

والواقع أن العنزةَ كانت المتهَمَةَ الثانية . وخاطبها المدّعي قائلاً : « إننا ننذرُ الشيطانَ الذي يحلّ في هذه العنزةِ بأنه إنْ أصرّ على ارتكابِ شرورهِ اللعينةِ ، وإثارةِ الرعبِ بين أعضاءِ المحكمةِ ، استعنّا بالمشنقةِ أو المحرقةِ للتخلّصِ منه » .

ثم تقدّم منها أحدُ أعضاءِ المحكمةِ وأخذ يسألُها عن الشهرِ والساعةِ ، وقدّم لها دفتاً ، فأخذت تنقرُه للإجابة . وشاع بين الناسِ رعبٌ شاملٌ رهيب .

ولم يستطع جرنجوار صبراً ، فصرخ عالياً : « لقد

ضاعتِ المسكينة . إنكم تَرَوْن أنها لا تدري ما تصنع » .

فقال الحاجبُ بصوتٍ حاد : « سكوتاً أيها الفلاحون هناك في أقصى القاعة » .

وزاد الأمور سوءاً أن وكيلَ الملك قد ألقى فوق أرضِ البهو الحروفَ الجلديّةَ التي طُوّقت بها عنقُ العنزة . فلم تتردد العنزةُ في ترتيبها على صورة : فوبوس .

وسرى رعبٌ في الموجودين . وأخيراً سأل الرئيسُ العجريّةَ : « ألا تزالين مصرةً على إنكارِ التهمة الموجَّهة ضدّك بقتل القائدِ فوبوس دي شاتوبار ، ليلةَ التاسعِ والعشرينَ من آذار » ؟

قالت بصوتٍ رهيبٍ ، ونهضتْ وفي عينيها شررٌ ملتهبٌ : « نعم . إني أصرُّ على الانكار » .

– « إذن كيف تفسّرين الوقائعَ التي تتهمك » ؟

– « لست أدري . أنا لا أعرف شيئاً .. إنه كاهنٌ جهنّمي لا أعرفه .. لست غيرَ فتاةٍ غجريّةٍ مسكينة » .

وقال عضو من أعضاء المحكمة : « نظراً لعنادِ المتّهمةِ أقترح أن تُطبّق عليها أساليبُ التحقيق » . ووافق زملاؤه على الاقتراح .

٢٥ – أساليب التحقيق

بعد أن اجتازت الأسميرالدا المسكينةُ بعض الدرجات عبر رَدهةٍ مظلمةٍ تُضاء بالمصابيحِ خلالَ النهار ، وحولها موكبُها المتجهّمُ دفع بها بعض رقباءِ الجندِ نحو غرفةٍ مخيفةٍ ، لا نافذةَ لها . أما النورُ فيها فكان مصدرَه نارٌ عظيمةٌ في الموقِد .

ورأت السجينةُ على ضوءِ النار التي لم تنطلق ألسنتُها خارج الموقِد ، آلاتٍ مخيفةً لم تدركِ الغايةَ منها ، وكيفيّةَ استعمالها . كان هناك مقابضُ حديديةٌ ، وأعوادٌ ، وأسياخٌ ، وأدواتٌ تعذيبيّةٌ غريبة أخرى .

وسألها الجلادُ ، ومعاونوه ، إن كانت ما تزال مصرةً على الإنكار ، فقالت بصوتٍ منطفىءٍ : « نعم » ! عندئذ رماها الجلادُ على فراشِ أشاعَ الرعبَ في نفسها . فألقتْ نظرةً تائهةً حول الغرفة ، وخيِّل إليها أن كلَّ ما حولَها من آلاتِ التعذيبِ يتحركُ نحوَها من كلّ جهة ، ليتسلّقَ جسدَها ، ويعَضّها ويَخِزَها .

قال الجلاد : « إنك تصرّين إذن ! فأنا منك يائسٌ ، وعليّ أن أقومَ بواجبِ وظيفتي .. ولكن بماذا نبدأ ؟ !

آه . بالحذاءِ الحديدي" .. هيّا » !

وراح الخادمان يبحثان عن الحذاءِ الحديدي" . وكان في هذا المشهدِ ما يُنبىء بأن روحاً مسكينةً ستعضّه آلةٌ حديديةٌ لا ترحم .

وفي هذه الأثناء عُرِّيَتْ ساقُها ورأتِ المسكينةُ ، عبرَ سُحُبٍ منتشرةٍ أمامَ عينيها ، شكلَ الحذاءِ الحديدي" يقترب منها . ورفعت جسدَها ضارعةً قائلةً : « رُحماكم ! ارفعوا عني هذا » !

وسألها الجلاد : « هل تعترفين بوقائعِ القضيّة » ؟

— « إنني بريئة » .

— « إذن كيف تفسّرين ظروفَ الاتّهام » .

— « يا صاحبَ السيادة ! لا أعرف شيئاً منها » .

وهنا أمر الجلادُ معاونه بضغطِ الحذاءِ الحديدي" على رجلِها . ونفّذَ المعاونُ الأمرَ ، وأرسلتِ البائسةُ صرخةً من تلكَ الصرخاتِ التي تعجز كلُّ لغاتِ العالمِ عن وصفِها .

وقال الجلاد آمراً معاونَه : « قف » ! ثم توجّه إلى الفجريّة يقول : « هل تعترفين » ؟

وصرختِ الفتاةُ : « نعم ! بكلِّ شيء ! رحماكم » !

إنها لم تحسَب حسابَ قواها الضعيفة عندما تحدّتِ التحقيقَ وجابهته . . لقد قهر الألمُ هذه المسكينة !

ورفع المحققُ صوتَه قائلاً : « اكتب أيها الكاتب ! هل تعترفين أيتها الفتاةُ بأنك على علاقةٍ حميمةٍ بالشيطانِ الذي تجسّم في شكلِ عنزةٍ لطيفة ؟ »

— « نعم » .

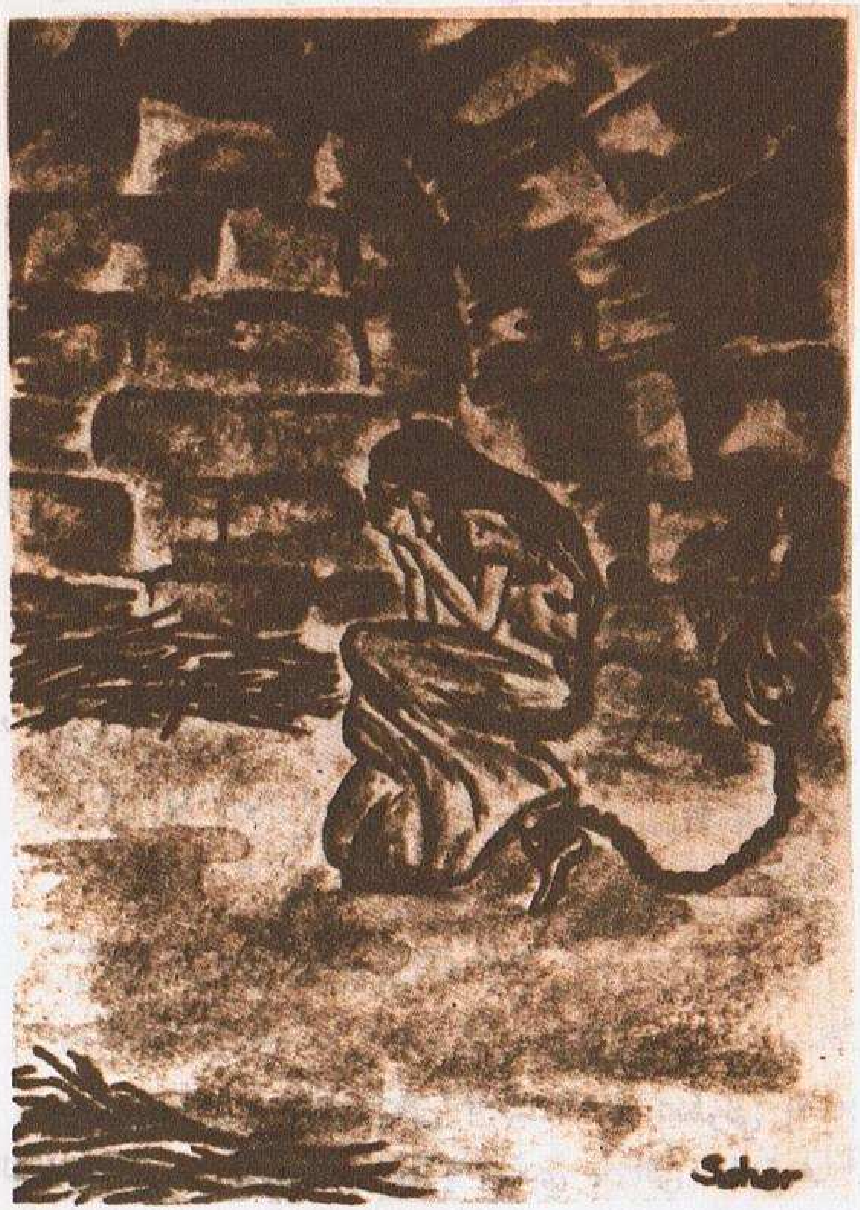
— « وهل تعترفين أنك قد قتلتِ بمساعدةِ الشيطان ، والشبحِ المدعو" بالكاهنِ الشريرِ ، القائدَ الدركيَّ فوبوس دي شاتوبار » ؟

فرفعتِ الفتاةُ عينَيْها إلى مخاطبِيها ، وقالت بصوتٍ آليٍّ : « نعم » .

ودُوِّنت اعترافاتها ، وفُكّت ، ثم حُمِلَتْ إلى قاعةِ المحكمة . والتفتَ أحدُ أعضاءِ محكمةِ التفتيشِ نحو زملائه يقول : « لقد استبانتِ العدالةُ أخيراً طريقَها ! وستشهدُ الفتاةُ بأننا تصرّفنا معها بأقصى رقّةٍ ممكنة » .

وبعد خطابِ وكيلِ الدفاع ، ومحامي الملك ، بدأ الاقتراعُ على الحكم . وراح كاتبُ المحكمةِ يكتب ، ثم حمل الورقةَ الطويلةَ التي كتبها إلى الرئيس .

وتلا صوتٌ مثلوجٌ الحكمَ : « يا فتاةَ الفجر ،



الغجرية في السجن

ستُحملين ظهرَ اليومِ الذي يختارُه مولانا الملكُ ، عاريةَ القدمين ، وفي عنقِك حبلٌ من مَسَدٍ ، فوقَ عربةٍ ، أمام البابِ الكبيرِ لكنيسةِ نوتردام ، وتُقدِّمين هناكَ مشعلاً زِنتُهُ رطلانِ ، ثم تُحمَلين إلى ساحةِ جريف ، حيث تُشنقينَ بمِشنقةِ المدينة ، وكذلك عنزتُـكِ . وستدفعين إلى مكتبِ محكمةِ التفتيشِ ثلاثَ قطعٍ ذهبيّةٍ ، تعويضاً عن الجرائمِ التي ارتكبتها : جرائمِ السّحرِ ، والقتلِ ، والإغراء ، بحقِّ شخصِ السّيدِ فوبوس دي شاتوبار . ليرحمْكِ الله وليغفرْ لك » .

فدمدمتِ المسكينة تقول : « أوه ! إنه حُلْمٌ جميل » ! ثم أحسّتْ بأيدٍ قاسيةٍ تقودُها .

٢٦ ـ فقدان الامل

وُضعتِ الاسميرالدا في مكان مُغلقٍ مظلمٍ ، في أقبيةِ قصر العدل . كانت هناكَ مطمورةً ، مقيّدة ، وقد أنهَكتْها السلاسل . وكانت تمرُّ في مخيّلتِها صورةُ فوبوس ، والشمسِ ، وشوارعِ باريسَ ، والرقصاتِ ، ثم صورةُ الكاهنِ ، والعجوزِ ، والخنجرِ ، والتعذيبِ ، والمِشنقةِ .

لم تكن تعرفُ المسكينةُ كم قضتْ من الأيّـامِ في سِجنِها هذا . بل كانت تذكرُ حُكماً صدر في مكانٍ ما

ضدّها ، وأنها نُقلت بعد ذلك ، واستيقظت بعد نقلِها وَسَط الليلِ ، والصمتِ الرهيب .

وفي يومٍ من الأيّام ، في نهارٍ أو ليلٍ ، إذ لا فرقَ بينهما في هذه المقبرة ، سمعت ضجّةً أكبرَ من تلك التي يُحدثُها الحارسُ الذي يحمل إليها الخبزَ والماءَ في العادة . وصرّ الحديدُ الثقيلُ ، وفُتحَ الباب .

ورأت أمامَها رجلاً مغطّىً من مفرقَ رأسِه حتى أخمصِ قدميْه ، فلا ترى منه شيئاً . فصرخت : « من أنت » ؟

– « كاهن » .

فاقشعرّت حين سمعت الكلمةَ والنبرةَ والصوت . وتابع الكاهنُ بصوتِه الأصمّ : « هل أنتِ مستعدةٌ » ؟

– « لأيّ شيء » ؟

– « للموت » .

قالت : « أوه ، هل أصبح قريباً » .

– « غداً » .

– « إن النورَ لكل الناس ، فلماذا لا تعطونني إلا الظلام . أريد الخروجَ من هنا يا سيّدي . انني خائفة ، وفي الكهفِ حيواناتٌ تزحفُ عبر جسدي كله » .

وفجأة انفجرت تبكي كالطفلِ الصغير . وأخذ الكاهنُ بذراعها ، فسرى في جسدها إحساسٌ بالبرد . ودمدمت تقول : « أوه ! هذه يد الموت الباردة . فمن عساك تكون » ؟

ورفع الكاهن غطاء رأسِه ، ونظرت . فإذا هي أمام الوجهِ المتجهّمِ المخيفِ الذي يتبعُها منذ زمنٍ طويل. فصرخت وهي تغطي عينيْها بكفيها وترجُف رَجفةً متشنّجة : « آه ! هذا هو الكاهن » !

وتركت ذراعيها تهبطان يائستيْن ، ثم بقيت جالسةً ورأسُها منخفضٌ ، وجسمُها كلُّه يرتجف .

أما الكاهنُ فبقي ينظرُ إليها في صمتٍ بالغ .

وقطعتِ الغجريّة الصمت فقالت : « أجهِز عليّ ! أرسل ضربتَك الأخيرةَ » ! ثم غاصت برأسها ، مذعورة ، بين كتفيها ، كالنعجةِ التي تنتظر ضربة الجزّار .

قال الكاهن : « يبدو لي أنني أخيفك » ؟

فلم تجب . وكرر قوله ، فتقلّصت شفتاها وكأنّها كانت تبتسم ، وقالت : « نعم ! إن الجلاّدَ يسخرُ بضحيته .. أيتها السماء ! هذا هو القاتل .. هذا هو الذي قتلَ فوبوس الحبيب » .

وانفجرت باكيةً ، فصرخ الكاهن : « أحبّك » !

وفجأة جَمَدت عيناها ، وقالت وهي ترتجف : « أيُّ حب هذا ؟ لقد كنتُ سعيدةً قبل أن ألتقيَ بك » .

فقال الكاهن : « وأنا أيضاً .. نعم . لقد كنتُ سعيداً قبل أن أعرفك . لقد كان العِلم كلَّ شيء في حياتي . كنت أجِدُ راحةَ نفسي في العِلم والمعرفة . وفي ذلك اليوم سمعتُ صدى دفٍّ وموسيقى ، فنظرتُ إلى السّاحة منزعجاً ، كانت فتاةٌ ترقص . يا َللجسد الرائعِ الذي يضيءُ حتى النهارَ نفسَه ! وا أسفاه ، أيَّتها الفتاة .. لقد كنتِ أنتِ هناك » .

وتوقّف الكاهنُ المتعبُ قليلاً ، ثم تابع يقول : « حاولتُ أن أتعلّقَ بأيِّ شيءٍ أجده ، وأن أمنعَ نفسي من السقوط .. لكنّكِ ، بجمالِك ، دخلتِ أعماقَ روحي ، فجعلتِني شخصاً آخر ، فلم أستطع التخلّصَ من خيالِك .. بحثتُ عنكِ ، وأحببتُ أن أراكِ دائماً . ثم حاولتُ أن أجرّبَ الدواءَ ، فحاولتُ أن أُبعدَكِ عن ساحةِ الكنيسة ، راجياً أن أنساكِ ، ولكنكِ لم تكفّي عن المجيء . ثم حاولتُ أن أخطفك . وبعد ذلك وشيتُ بكِ إلى المحكمةِ لتكتملَ مؤامرتي ضدّكِ » .

أخذتِ الفتاةُ تدمدم : « آه ، يا فوبوس العزيز » !

فقال الكاهن وهو يمسكُ بذراعِها بعنفٍ : « لا تنطقي

بهذا الاسم أبداً ، إنه الاسم الذي سبّب ضياعَنا في لُعبةِ القدرِ الغامضة .. لا تقاطعيني ! لقد حضَرتُ محاكمتَك ، وقطّعَتِ الآلامُ أحشائي . ثم تبعتكِ إلى غرفةِ التعذيب ، وبينما كنت أنظرُ إليك ، كنت أحملُ خنجراً أحزُّ به صدري . وحين أرسلتِ صرختَكِ الأولى غرستُه في لحمي . أنظري » !

والواقع أن صدره كان مجروحاً .

وأردف الكاهنُ يقول : « أهينيني ! اسخري بي ما شئتِ ، ولكن تعاليْ ، لنسرع ! سينزلِ بكِ القضاءُ غداً . المشنقةُ غداً ! اتبعيني ، ولا تتركيني أقع في الهاوية » !

— « ماذا أصاب فوبوس الحبيب » ؟

— « لقد مات » .

فقالت بصوتِ دائمِ الجمودِ والبرود : « مات ! فلِمَ تحدّثُني إذاً عن الحياة » ؟

أما الكاهن فلم يكن يسمعها ، بل قال يحدّث نفسه : « نعم ، يجب أن يكون ميْتاً ، لقد نفَذَ الخنجرُ بعيداً في أعماقِه ، وأظن أنني قد أصبتُ قلبَه » .

وألقتِ الفتاةُ نفسَها فوقَه وكأنها نمِرةٌ غاضبةٌ ، ودفعته بقوةٍ نحو درجاتِ السلّمِ ، ثم قالت : « أغرُب

عنّي أيها الوحش ! دعني أموت ! لن أكونَ لك أبداً أيّها الملعون » .

وتعثر الكاهنُ فوقَ درجاتِ السُلّمِ ، ثم أخرج قدميه صامتاً ، وفتح البابَ ، وخرج .

وفجأة رأتِ الفتاة رأسَه يبرز مرة أخرى ، وفي قسماته تعبيرٌ مخيف ، وصرخ في حشرجةِ الغيظِ واليأسِ : « قلت لك إنه قد مات » !

٢٧ - الامّ

عندما يضيع الطفل من أمّه نهائياً ، فلا بدّ أن تتجمّع في ذهنها عنه آلافُ الصورِ والذكرياتِ ، تستعيدُها ، محتفظةً بأتفه الأشياءِ التي كانت لطفلها الحبيب .

كانت الحبيسةُ ، باكيت لاشانت فلوري ، تحتفظ بحذاءٍ جميلٍ مُطرّزٍ لابنتِها الضائعة . ولقد تحوّلَ هذا الحذاءُ الجميلُ إلى آلةِ تعذيبٍ تسحقُ قلبَ الأمّ سحقاً .

وفي صباحِ يومٍ من الأيامِ المشرقةِ ، كانتِ الحبيسةُ تقول : « أين أنتِ يا بُنيّتي ؟ يُخيّلُ إليّ أن كلّ ما أصابَك قد حدث أمسِ فقط ! يا إلهي ! يجب أن تعيدَ

إليّ طفلتي ! هذا هو حذاؤها الجميلُ ، أفلا تشفق عليّ ؟! خمسَ عشرةَ سنةً ، وأنا أنتظر .. لا بدّ أنها أصبحت الآن صبيّة .. لو أستطيع أن أراها مرّةً واحدةً فقط ، ثم أموت .. » .

وألقت البائسةُ نفسَها فوق هذا الحذاءِ ، فهو عزاؤها الوحيد . وفجأة سمعتْ أحدَ الأطفال يقول : « ستُشنقُ اليومَ فتاةٌ غجريّة » .

وركضت المسكينة نحو كُوّتها ، بحثاً عن الأمر ، فشاهدت كاهناً قريباً من كهفها ، يتظاهرُ بقراءةِ كتابِ الصلاة ، ولكن انشغالَه بالنظر إلى المشنقةِ كان أعظمَ من انشغالِه بكتابِ الصلاة . لقد عرَفت الحبيسة أنه كاهنُ جوزا .

وسألته : « من سيشنقون يا أبي » ؟ فنظر الكاهنُ إليها ، ثم لم يجب . وقال بعد أن كرّرت سؤالَها : « لا أدري » .

— « لقد سمعتُ أطفالاً يقولون إنها غجريّة » .

— « أظنُّ ذلك » .

وهنا انفجرتْ باكيت لاشانت فلوري بقهقهةٍ كقهقهةِ الفهد . فقال الكاهن : « فإذاً أنت تكرهينَ الغجريّات » ؟

— « نعم إنني أكرهُهنّ .. هناك واحدةٌ منهنّ أكرهُها

بصورةٍ خاصةٍ ، وقد لعنتُها . إنها فتاةٌ شابةٌ ، من عمرِ ابنتي الآنَ لو لم تأكلْها أمُّها » .

وقال الكاهن : « حسنٌ جداً . . إنها هي التي سترينها تموت اليوم » .

وضمت الحبيسةُ ذراعيها بفرحٍ ، وقالت : « لقد تنبأتَ لها بذلك ، يا سيّدي الكاهن ! فشكراً لك » .

٢٨ – المشنقة

لم يكن فوبوس في تلك الأثناءِ ميتاً . وعندما قال محامي الملك للأسميرالدا إنه مات ، فقد أخطأ أو قصد المزاح . أما حين ردّد الكاهنُ على المحكومةِ قولَه : « إنه ميْت » فالواقعُ أنه لم يكن يعرفُ الحقيقة . إلا أنه كان يريدُ موتَ القائد .

ولا يعني هذا أن جُرح فوبوس لم يكن خطيراً ، لكنّ خطورتَه أقلُّ مما كان يتصوّرُ الكاهن . لقد أنقذتِ الطبيعةُ ، والطبيبُ ، هذا الرجلَ ، وكان رجالُه قد وجدوه فاعتنوْا به . وخضع فوبوس للتحقيق . لكن العدالةَ في تلكَ الأيامِ لم تكن تهتمُّ إلا بشنقِ المتّهمِ ، لا بمجرى التحقيق .

والتحق فوبوس بفرقته ، ولم يكن يحبُّ أن يظهر في هذه الدعوى بشخصه . لقد كان خجلاً خجَلَ الثعلبِ الذي وقع في حبائلِ الدجاجة . وكان يرجو أن لا يتردّدَ اسمُه في هذه القضيةِ كثيراً .

وبما أن فلور – دي – لي كانت موضوعَ هواه قبل الهوى الأخيرِ ، وهي فتاةٌ جميلةٌ ذاتُ مَهرٍ دسمٍ ، فقد وصل الفارسُ المحبُّ إلى باب منزل جوندولوريا ، بعد أن شُفيَ تماماً ، وظنّ أنّ قضيةَ الفتاةِ الغجريةِ قد نُسيتْ حتماً بعد مرورِ شهرينِ متتابعين .

ودخل القائدُ إلى المنزلِ ، وقال لفلور إنه كان في معسكرِه في فترةِ غيابِه ، وإنّ ما منعه من زيارتِها وأمِّها ، أنه كان جريحاً ، بسببِ قتالٍ بالسيوفِ بينه وبين زميلٍ له .

وبعد أن اطمأنتِ الفتاةُ إلى صحّةِ فوبوس سألتْه عن سبب خلافِه مع زميلِه ، فلم يجبْها إجابةً واضحة ، وهنا سمعا ضجّةً تنطلقُ من ساحةِ بارفيس ، فاقتربتِ الفتاةُ من النافذة ، ثم قالتْ : « الظاهرُ أنّ هناك ساحرةً ستُقبِلُ نحو الكنيسة لتقدّمَ قربانَها إليها هذا الصباح ، ثم ستُشنقُ بعد ذلك » .

ثم دخلتِ الأمُّ ، فحدّثتهما . وقالت فلور – دي – لي

فجأة : « يجبُ أن نتزوّجَ يا فوبوس خلال ثلاثةِ أشهرٍ ، فأقسِمْ لي أنـك لم تحبّ امرأةً غيري أبداً » .

فأجابها فوبوس بصوتٍ تشوبه لهجـةُ الإخلاص : « أقسِمُ لك يا ملاكي الجميل » .

ونهضا نحوَ النافذةِ ، ونظرا إلى الساحـة ، فرأيا عَرَبَةً ، يجرّها جوادٌ ضخمٌ ، تتوقفُ في السّاحة ، وتنزل منها فتاةٌ ذاتُ شعرٍ متموّجٍ ، وساقين عاريتين ، وعند قدميها عنزةٌ مقيّدةٌ صغيرة .

قالت فلور ـ دي ـ لي للقائد : « يا للمسيح ! أنظر يا ابنَ عمّي الجميل ! إنها تلك الغجريّةُ الكريهةُ ذات العنزة » .

فقاطعها فوبوس قائلاً : « أيّةُ غجريّة ؟ لستُ أدري من تقصدين » .

ثم خطا خطوةً واحدةً إلى داخلِ البيت ، فاستيقظت في نفسِ فلور الغيرةُ ، فقالت لفوبوس : « ما بك ؟ يبدو أن هذه المرأةَ قد أقلقتكَ وأهاجتك » .

فحاول فوبوس أن يبتسمَ ساخراً ، وقال : « أنا ؟ أبداً ! لا شيءَ من ذلك » !

فأردفت : « ابقَ إذاً ، ولننتظرْ حتى النهاية » !

وأرغِم فوبوس على البقـاء . ومما كان يطمئنه أن المحكومة لم تكن ترفعُ نظرها عن أرضِ العربة . إنـها الاسميرالدا بالذات ، فقد خالط جمالَها هُزالٌ شديد . وكانت تُردّد : « فوبوس .. فوبوس .. » بينما كان نشيدٌ دينيٌّ ينطلق من الكنيسة .

وفُكّت يداهـا ، ثم تُركت تمشي حافيةً فوق البلاط الخشبيّ حتى أدنى درجاتِ البابِ الكبير .

انقطع النشيد ، وأخذتِ الفتاةُ تنظر إلى المرتّلين . كان يترأسُ موكبَهم الكاهن نفسُه ، فقالت وهي ترتجف : « آه .. إنه الكاهنُ مرّةً أخرى » .

واقترب الكاهنُ منها ببطء ، ثم قال لها بصوتٍ مرتفع : « أيّتها الفتاةُ .. هل سألتِ الله أن يعفوَ عن خطاياكِ وتصرّفاتك » ؟

ثم انحنى فوق أُذُنِها ، وأضافَ (والناسُ يظنّون أنه يستمع إلى اعترافِها الأخير) : « ما زلتُ قادراً على تخليصِك » !

فنظرت إليه بعينٍ ثابتة ، وقالت : « ماذا صنعت بفوبوسَ الحبيب » ؟

قال الكاهن : « لقد مات » .

وفي هذه اللحظة بالذات رفع الكاهنُ رأسَه بطريقة آليّة فرأى في الطرفِ الآخرِ من الساحةِ ، فوق شرفة آل جوندولوريا ، القائدَ نفسَه واقفاً بالقربِ من فلور - دي - لي .

وتقلّصت قسماتُ وجهِ الكاهن وأنهى الترتيلَ بسرعة .

وتقدّم واحدٌ من المعاونين نحو الغجريّةِ ، ليقيّدَ لها مِرفقَيها ، فأرسلتْ صرخةً رهيبةً ، صرخةَ فرحٍ وحبورٍ : لقد رأت فوقَ الشّرفةِ ، عند زاويةِ الساحة ، فوبوسَ نفسَه . لقد كذَب الكاهن ! لم يعد يسعُها أن تشُكَّ في هذا أبداً .

وصرخت : « فوبوس ! فوبوسي الحبيب » !

ورغبت في مدّ ذراعيها الراجفتين نحوَه ، معبّرةً عن عظيمِ فرحِها ، ولكنّهما كانتا مقيّدتين .

ورأتِ الضابطَ يُقطّبُ حاجبيه ، ويختفي مع فتاتِه وراءَ حاجزِ الشّرفة الزجاجيّ .

وصرخت : « فوبوس ! هل تصدّقُه » ؟

وهنا قال المعاونُ : « هيّا ! احملوها إلى العربةِ ، ولننته منها » !

والواقعُ أن أحداً من النّاسِ لم ينتبهْ إلى شاهدِ

غريب ، تفحّصَ الأمرَ كلّه ، ببرودٍ فائقٍ ، وعُنقٍ مشدودٍ ، ووجهٍ بشع .

وفجأة قفز فوقَ حاجزِ الردهة ، بينما كان معاونا الجلاّد يحاولان حملَ الفتاةِ إلى العرَبةِ ، وركض نحوَهما ، وألقى بهما أرضاً ، واختطفَ الغجريّةَ بيدِه ، كما يختطفُ الطفلُ لعبتَه . ثم أصبحَ في داخلِ الكنيسةِ بقفزةٍ واحدة ، يحملُ الفتاةَ ، وهو يصرخُ بصوتِه الرهيب : « حِمى ! حِمى » !

وكرّرت الجماهيرُ : « حِمى ، حمى » ! وصفّقت الآلافُ من الأكفّ .

ولقد تنبّهت الغجريّةُ إلى مختطفِها ، فرفعت رأسَها ناظرةً إليه ، وكأنّها مذعورةٌ منه ، وهو محرِّرُها ومنقذُها .

ووقفت الجماهيرُ تضِجّ بالحماسةِ ، وتنظرُ إلى كوازيمودو ، الذي كان في تلكَ اللحظة رائعَ الجمال . لقد كان جميلاً بقوّته ، وبأبّهته ، وبنظرته إلى الجلاّدينَ ، والقضاةِ ، والكهنة .

وغاص كوازيمودو في داخلِ الكنيسةِ ، حاملاً غنيمتَه بين يديه ، وهو يصرخ « حِمى .. حِمى .. » ، والجماهيرُ تصفّق له ، وتهتفُ كما يهتف .

أما الجلادون ، وموكبُ المرتّلين ، فأدركوا سريعاً أن المحكومةَ في حِمى من كل عدوان ، لأنّها داخل سياج الكنيسةِ ، التي هي ملجأ لكل هارب .

٢٩ — حمى

لم يكن كلود فرولو الكاهنُ في نوتردامَ حينما حطّم ابنُه بالتبنّي بمثلِ هذه المفاجأةِ ، العقدةَ الغادرةَ التي قاده إليها الكائن البائس ، فتاتَه الفجريّة . فقد كان غادر المكانَ منطلقاً عبرَ شوارعِ المدينةِ الجامعيّةِ ، والأفكارُ تتزاحمُ في رأسِه : هي محكومةٌ بالإعدامِ ، وهو مرذولٌ ملعون .

وكان قلبُه يذوبُ يأساً وحناناً ، حين يفكّرُ بالسعادةِ التي كان يمكن أن يجدَها ، لو لم تكن تلك الفتاة غجريّةً ، ولو لم يكن هو كاهناً ، ولو أحبّته ، من غير أن يوجدَ فوبوس .

وركض عبْرَ الحقولِ حتى المساء . وكان يُلقي بنفسه فوقِ الأرضِ بعضَ المرّات .

وبعد أن هام على وجهه في الشوارعِ ، قرّر ، بما بقي لديه من حياةٍ ونشاطٍ ، أن يرجعَ إلى الكنيسة .

كان بابُ الديرِ مغلقاً . ولكن الكاهنَ ، الذي كان يحملُ مفتاحَ البرج دائماً ، قد استعان بهذا المفتاحِ للدخول . وانطلق هارباً عبرَ الكنيسة ، ثم حمل مصباحاً وألقى بنفسه فوق الكتابِ المقدّس ، لعلّه يجد فيه شيئاً يعزّيه .

وفجأةً أحس ببرودةٍ شديدةٍ ، وهبّ الهواءُ مطفئاً مصباحه . فرأى في تلك اللحظة ظلاً ، بل شكلاً ، بل امرأةً ، تبدو عند الزاويةِ المقابلة . فاقشعرّ ثم لمح إلى جانبِ المرأةِ حيواناً صغيراً .

ووجد في نفسه القوةَ على النظر : كانت هي ، مع عنزتِها .

كانت تلبس ثوباً أبيضَ ، وتتّجه نحوَه ، ناظرةً إلى السماء ، والعنزةُ العجيبةُ تتبعها . فلم يستطع أن يهربَ فجأة . وانتظر بلوغَ الفتاة باب السُلّم ، ثم توارى .

٣٠ — أحدب ، أعور ، أعرج ، أصم

عندما وضع كوازيمودو الفجريّةَ في غرفةٍ كانت مخصّصةً للاجئين ، استيقظتْ أفكارها ، والتفتتْ نحو

محـرّرها ، الذي كان يبعثُ الذعرَ في نفسها ، وقالت : « لِمَ أنقذتَني » ؟

فألقى نحوها نظرةً عميقةَ الحزنِ ، ثم ابتعد هارباً ، تاركاً إياها في دهشةٍ كبيرة .

وبعد قليلٍ رجع إليها يحمل صُرّةً من الثياب ألقاها بين قدميها . ثم حمل إليها سَلّةً فوق ذراعِه ، وفراشاً فوقَ الذراعِ الأخرى .

ورفعت الغجريّة عينيها نحوه لتشكرَه ، ولكنها لم تستطعْ أن تنطقَ بكلمةٍ واحدة . لقد كان الشيطان المسكينُ مخيفاً حقاً فخفضت رأسَها في قُشَعْريرة ورهبة .

وهنا قال لها : « إني أُخيفُكِ ، فأنا قبيحٌ جداً ، أليس كذلك ؟ لا تنظري إليّ ، بل اسمعي : ستبقين هنا في النهار ، أما في الليلِ ففي وُسعِك أن تتنزّهي عبرَ الكنيسةِ كلّها . ولكن لا تخرجي من الكنيسة ، ليلاً أو نهاراً . فإن فعلتِ قتلوك ، ومُتُّ أنا معك . »

ورفعت رأسَها لتجيبَهُ ، وهي بالغةُ التأثّر ، ولكنه كان قد اختفى .

وفي المساء سارتِ الفتاةُ حول الردهةِ المرتفعةِ التي

تحيطُ بالكنيسةِ ، وشعرتْ بشيءٍ من العزاء يتسرّبُ ، إلى نفسِها الحزينة .

وفي الصباح التالي ، لاحظت وهي تستيقظ أنها قد نامت ، فأدهشَتْها هذه الظاهرةُ الغريبة . لقد مرّ بها عهدٌ طويلٌ نسيتْ خلالَه النوم .

وسمعت صوتاً خشناً يقول لها برقّة شديدة : « لا تخافي ! إنني صديقُكِ . لقد أتيتُ لأراكِ نائمة .. لقد وقفتُ خلفَ الجدار ، وفي وُسعِكِ أن تفتحي عينيْكِ كما تشائين » .

وكانت اللهجةُ التي قيلت بها هذه الكلماتُ أشدَّ إثارةً للشفقة من الكلماتِ نفسِها . وتأثّرتِ الغجريّةُ بهذا الموقفِ ، فنادتْه قائلةً : « تعال » ! وظنّ كوازيمودو المسكينُ عند حركةِ شفتيها أنها تطرده ، فنهض وانسحب وئيداً يعرُج .

وخرجتِ الفتاةُ لاحقةً به ، وأرجعتْه إلى الغرفة . وقَطعَ الصمتَ الذي مرّ وهو يقول : « إذن كنت تقولين لي أن أرجع » ؟

فهزّت رأسَها وهي تردِّدُ : « نعم » .

ففهم حركةَ رأسها وقال : « ذلك أنني ، للأسف ، أصمُّ لا أسمع » .

فصرخت الفجريّة تقول بصوتٍ مفعمٍ بالشفقةِ : « يا للرجلِ المسكين » . فأخذ يبتسمُ في ألمٍ ويقول : « إنك تجدين أنه لم يكن ينقصني إلا هذا ؟ نعم ، إنني أصمّ . هكذا صُنِعتُ ... شيءٌ رهيبٌ ... أما أنتِ فجميلةٌ رائعة » !

وكان في لهجة المسكينِ من البؤسِ العميقِ ما جعلها غيرَ قادرة على الإجابة .

وتابع يقول : « نعم ، إنني أصمّ ولكنكِ ستتحدثين إليّ بالحركات . إن لي سيّداً يتحدثُ معي بهذه الطريقة » .

وأردفتِ الفتاة تقول وهي تبتسمُ : « حسنٌ جداً ! لكن أخبرني لِمَ أنقذتني » ؟

ونظر إليها بانتباهٍ شديدٍ وهي تتكلمُ ، ثم أجابها : « لقد فهمت . تسألينني لِمَ أنقذتُك .. لقد نسيتِ قطرةَ الماءِ ، والقليلَ من الشفقة .. هذا هو الدَّيْن الذي يجب أن أسُدَّه » .

وكانت تُصغي إليه بحنانٍ بالغ . وأردف حين لم يعد يخافُ من سقوطِ الدمعةِ يقول : « أصغي إليّ .. إن لنا هنا أبراجاً عاليةً جداً ، والرجلُ الذي يسقطُ منها سيموتُ قبل أن يبلغَ ترابَ الأرض .. وحين يحلو لكِ أن أسقطَ ، فليس لكِ إلا أن تأمريني بذلك » .

ثم أخرج من جيبِهِ صافرةً معدنيّةً ، وقال لها « خذي هذه ، فإن احتجتِ إليّ وأردتِ أن آتيك ، انفخي فيها ، فإنني أسمعُ صداها » .

ووضع الصافرةَ أرضاً ، ثم ابتعد هارباً .

***

وتتابعتِ الأيام .

ورجَعَ الهدوءُ إلى روح الأسميرالدا شيئاً فشيئاً . لكنها كانت تفكر دائماً بالقائدِ ، وترى أنه كان قبيحاً به أن يُخدعَ ، ويصدّقَ أنها هي التي طعنته .

وكانت الغجريّةُ تفكّر في كوازيمودو حين يتركُ لها تفكيرُها في فوبوس شيئاً من الوقت . لقد كان كوازيمودو الرابطةَ الوحيدةَ الباقيةَ التي كانت تربطها مع الأحياء . وكانت تحاول جاهدةً ألا تنظرَ إليه بكثيرٍ من الاشمئزاز حين يأتي حاملاً سلةَ مؤونتِها ، أو جرّةَ مائها . وكان المسكينُ يستشعرُ أقلّ أنواعِ هذا الاشمئزازِ ، فيرجعُ كاسفاً .

وفي يوم أتاها ، وهي تلاعبُ عنزتَها ، فهزّ رأسه الثقيلَ المشوّهَ وقال : « إن بؤسي الشديدَ ناتجٌ عن أنني شديدُ الشبهِ بالإنسان . لكَم كنت أتمنى أن أكونَ حيواناً كهذه العنزة » .

وفي مرةٍ أخرى دخل عليها وقال بخجلٍ : « أصغي إليّ ، فعندي ما أقولُه » . وأشارت الفتاة إليه أنها مصغية . فأخذ يتنهّدُ ، ثم نظر إليها ، وحرّك رأسَه حركةً سلبيةً ، وانسحب ، وجبهتُه في كفّه ، تاركاً الغجريةَ مندهشة .

***

وسمعته الفتاةُ يوماً يقولُ لوجهٍ بَشِعٍ من الوجوهِ الحجريةِ المنحوتة : « لِمَ لا أكونُ حجَراً مثلَك » ؟

وأخيراً خرجتِ الأسميرالدا في صباحِ يومٍ ، وتقدّمت حتى بلغتْ طرفَ السطحِ ، ونظرت إلى الساحةِ ، وكوازيمودو خلفَها متحاشياً أن يقعَ نظرُها عليه ، ليجنّبَها أكبرَ قدْرٍ من الانزعاجِ والخوف . وفجأةً اقشعرّت الشابةُ ، وأضاء في وجهها بريقُ فرحٍ ، وأخذتْ تصرخُ : « فوبوس ! تعالَ ! تعال ! كلمةً واحدةً بحقّ السماء » ! فكان في صوتِها ، ووجهِها ، وحركاتِها ، ما يمزّقُ الأكباد .

وانحنى كوازيمودو فوقَ الساحةِ ، ورأى أنّ موضوعَ رجائها هو رجلٌ فارسٌ جميلٌ ، يلمعُ بأسلحتِه وزينتِه ، ويحيّي سيّدةً جميلةً تبتسمُ فوقَ شرفتها . لكن الضابطَ لم يسمعْ نداءَ البائسة .

وفجأة جذبها كوازيمودو ، فالتفتتْ نحوه ، وسمعته

يقول لها : « هل ترغبين في أن آتيَك به » ؟

فأرسلت صرخةَ فرحٍ وقالتْ : « أسرع ! اجرِ ! إئتِ به ! إنني سأحبُّك إنْ فعلتَ هذا » .

وضمّت صدرَها إلى ركبتيْه . فلم يَسعْه إلا أن يَهزّ رأسَه من الألم ، وأن يقولَ بصوتٍ ضعيف : « سآتيك به » .

وقفز بخطواتٍ كبيرةٍ إلى ما تحتَ السلّمِ ، وحينما بلغ الساحةَ لم يجدِ القائد . ورفع بصرَه نحوَ سطحِ الكنيسة . فكانت الأسميرالدا في مكانِها ، فأشار إليها برأسِه إشارةَ حزْنٍ وأسى .

وبعد ساعاتٍ من الانتظار لمح كوازيمودو الضابطَ على جوادٍ أبيضَ ، فتبعَه وهو يصرخُ : « ها ! أيّها القائد » ؟

ووقف القائد . ثم قال : « ماذا تريدُ مني أيّها التافه » ؟

وأمسك كوازيمودو بعِنانِ الجواد بجرأة ، وقال : « اتبعني أيّها القائد . إن هناك امرأةً تنتظرُك » .

فأجابَ الضابطُ نافدَ الصّبرِ : « قلت لك اتركْ جوادي ولتذهب صاحبتُك إلى الشيطان » .

وصرخ كوازيمودو وقد ظنّ أنه سيضعُ حداً لتردّدِ القائدِ بكلمةٍ واحدة : « أصغِ إليّ ! إنها الفجريّةُ التي تعرفها » .

والواقع أن هذه الكلمةَ أثّرتْ في نفسِ فوبوس تأثيراً عميقاً . ولكنه لم يكنْ يعرفُ علاقةَ كوازيمودو بها ، لأنه دخل المنزلَ مع فلور ـ دي ـ لي قبل أن ينقذَ كوازيمودو الفجريّة .

وبعد قليلٍ صرخ القائد : « الفجريّة ! لا بد أنك آتٍ من العالمِ الآخَر » .

فقال كوازيمودو الأصمُّ : « أسرِع ! الطريق من هنا » .

فركله فوبوس ، وانطلق وهو يشتِمُه .

ولما رَجَعَ كوازيمودو إلى الكنيسةِ قال للفتاةِ إنه لم يستطعْ أن يجدَ القائدَ ، وإنه سيراقبُه في اليوم التالي .

قالت له : « أغرب عن وجهي » .

ففضّل أن يحتفظ لنفسِه بكلّ الألمِ ، وانطلق إلى الحُجرةِ التي يتوسّدُها ، وهو يغنّي أغنيةً حزينةً كانت تسمعُها الفجريّة :

لا تنظري إلى الشكلِ
وانظري إلى القلبِ أيتها الفتاةُ
إن قلبَ شابٍّ جميلٍ ، في الغالبِ ، قلبٌ مشوّهٌ
فهنالك قلوبٌ لا تحتفِظُ بالحب

٣١ - مفتاح الباب الاحمر

عرَف الكاهنُ بالطريقةِ التي أُنقذتْ بها الفجريّة . ولم يعرِف حين بلغه الخبَرُ حقيقةَ شعورِه ، ولا سيّما أنه كان قد أعدّ نفسَه لتقبُّلِ موتِ الأسميرالدا . وعلى ذلك فقد ماتت الأسميرالدا في ظنّه . أما أن يشعرَ بأنها حيّةٌ ، وأن يحيا فوبوسُ أيضاً ، فكان مصدرَ عذابٍ جديدٍ له ، وهزّاتٍ متكرّرة .

وكان يقضي أياماً كاملةً ملصقاً وجهَه بزجاجِ نافذتِه . ويرى من خلال نافذتِه في الدّيْر غرفةَ الأسميرالدا . كان يراها غالباً مع عنزتِها ، أو مع كوازيمودو ، في بعض الأوقات . وكان يتساءلُ عن سببِ إنقاذِ كوازيمودو لها . وأحسّ بغَيْرةٍ تستيقظُ في أعماقِه ، غَيْرةٍ كانت تصبغُ وجهَه بالحُمْرة خجلاً من نفسِه ، وازدراءً لها .

وكان الكاهنُ يعرف أين يجدُ مفتاحَ الباب الأحمرِ الذي

يصلُ بينَ الديرِ والكنيسةِ وكان يحتفظُ دائماً بمفتاحِ سُلّمِ الأبراج .

وكانت الأسميرالدا في إحدى الليالي تنامُ حالمةً ، كشأنِها دائماً ، بفوبوسَ ، حين خُيِّل إليها أنها تسمعُ ضجّةً من حولِها . ففتحتْ عينيْها ووجدت في نفسِها الجُرأةَ على النظرِ ، فإذا بالكاهن أمامَها .

وصرخت : « أغربْ عن وجهي أيُّها الوحشُ ! أغربْ عن وجهي أيُّها القاتل » !

ولم يأتِ أحد . وقال لها الكاهنُ بصوتٍ لاهثٍ : « اسكتي » !

وهنا أمسكتِ الغجريّةُ بالصافرةِ ، وأرسلتْ صوتاً حادّاً منها . وأحسَّ الكاهنُ بعدَ لحظةٍ بيدٍ قويّةٍ تمسكُ ذراعَه . وخُيِّلَ إلى الكاهنِ أنه يرى شكلَ كوازيمودو ، وتذكَّرَ أنه قد تعثَّر وهو يدخلُ ، بكتلةٍ كانت متمدّدةً عند عتبةِ البابِ الخارجيّ .

وأحسَّ الكاهنُ بركبةٍ قويّةٍ تجثمُ فوقَ صدرِه . فلقد جعل الليلُ من الرجلِ الأصمِّ رجلاً أعمى ، فلم يتعرّفْ الى سيّده .

وجرَّ الأحدبُ الكاهنَ إلى خارجِ الغرفة . فهناك يجب أن يموت . وكان من حسنِ حظِّ الكاهنِ أن القمرَ

أطل وتعرّفَ كوازيمودو إلى سيّدِه . وانقلبَ الموقفُ : لقد أصبحَ الكاهنُ يهدّدُ ، وكوازيمودو يرجعُ ويتضرّع .

وأشار الكاهنُ إلى كوازيمودو بأن يتراجعَ ، وهمَّ بدخول الغرفةِ ، فصرخ كوازيمودو : « سيّدي ، اقتلني أوّلاً » !

وقدّم إلى الكاهن سكينهُ وهو يتكلّم ، أما الكاهنُ الذي فقد وعيَه ، فقد انقضّ عليه ، ولكن الفتاةَ كانت أسرع منه ، فانتزعتِ السكينَ من يدِ كوازيمودو ، قبلَ أن يأخذَها الكاهن ، وصرخت في وجه الكاهن : « اقترب ! إنكَ لن تجرؤَ على الاقترابِ أيُّها الجبان .. لقد عرَفتُ أن فوبوسَ ما يزالُ حيّاً » !

وتردّد الكاهنُ قليلاً ، ثم ركلَ كوازيمودو وانصرف وهو يردّد : « لن يفوزَ بها أحدٌ غيري أبداً » !

لقد أصبح كلود فروللو يغارُ من كوازيمودو .

٣٢ – خطة جرنجوار

كان بطرس جرنجوار في يومٍ من الأيّامِ يتأمّل بناءً من الأبنيةِ الرائعةِ في الشارعِ ، عندما أحسَّ بيدٍ توضعُ بوقارٍ على كتفِه . ولما التفت إلى الوراء ، وجد صديقه

القديمَ ، بل أستاذَه القديم ، الكاهن كلود فروللو

وراحا يتكلّمان عن النقوشِ والمنحوتات . وفي هذه الأثناء ارتفع صدى خيولٍ جاريةٍ ، ورأى المتحاورن أمامَهما عند طرف الشارعِ فرقةً من رُماةِ حرسِ الملك ، وبأيديهم رماحٌ مشرّعةٌ في الفضاء ، والضابطُ في مقدّمتهم .

قال جرنجوار للكاهن : « ما أشدّ ما تنظر إلى هذا الضابط » .

— « ذلك أنني ظننت أني أعرفُه » .

— « وما اسمه » .

— « أعتقد أن اسمه فوبوس دي شاتوبار » .

ثم قال الكاهن : « تعالَ ! إن عندي شيئاً أقوله لك » !

ومضيا ، فأخذ الكاهنُ يسألُه عن ثيابِ الفرسانِ وثيابِ الكهان ، وغيرِ ذلك . ثم قال : « ماذا فعلت يا جرنجوار بهذهِ الراقصةِ الغجريّةِ الصغيرة » ؟

— « الأسميرالدا ؟ أعتقد أنّهم شنقوها » .

— « لا يا صديقي . . سأخبرك عنها : إنّها في الواقع مختبئةٌ في نوتردام . ولكنّ العدالةَ ستخرجها منها بعد

ثلاثةِ أيام ، وستُشنقُ في ساحةِ جريف ، بعد أن صدر تشريعٌ برلمانيٌّ خاص بشأنِها » .

قال جرنجوار : « هذا خبرٌ محزنٌ حقاً » .

وهنا قاطعه الكاهن ليقول : « لقد انقذتْ هذه الفتاةُ حياتَك في الماضي . ألا تريدُ أن تصنعَ شيئاً من أجلِها » ؟

وقال كلود حالماً : « كيف السبيلُ إلى إنقاذها » ؟

فرفع الكاهنُ صوتَه قائلاً : « لقد فكّرتُ مليّاً في هذا . سأقول لك رأيي بصراحة : إن الكنيسة مراقبةٌ ليلاً ونهاراً . ولكن أستطيع أن أدخلك إليها فتقابلَ الفتاة . فتبادِلَها ثيابَك ، ثم تخرجَ هي وتبقى أنت ، فتُشنَقَ ، وتنجوَ هي من الموت » .

ولم يكد جرنجوار يسمعُ هذا الاقتراحَ حتى اصفرَّ وجهُه ، وقال : « وما رأيك إن خطرت لي فكرةٌ أنقذها بها ، دون أن أُعرّضَ نفسي لحبلِ المشنقة » ؟

فقال الكاهنُ بحماسةٍ : « وما وسيلتُك » ؟

— « اعلمْ يا سيّدي أن اللصوصَ رجالٌ طيّبون وهم مستعدّون لخطفِ الفتاةِ بفضلِ الفوضى التي سيحدثونها ، وبمساعدةٍ ضئيلة » .

قال الكاهن وهو يهزّه : « وما الوسيلة ؟ تكلّم » !

وانحنى جرنجوار على أذن الكاهن يهمس فيها .

وأخيراً أمسك دوم كلود بيده ، وقال له ببرود .

« هذا شيءٌ حسن . فإلى الغد » .

٣٣ ـ الهجوم

وفي ليل اليوم التالي هبَّ سكانُ بلاط العجائب ، رجالاً ونساءً وأطفالاً ، وبصخبٍ شديدٍ يصدرُ عن أسلحتهم ، منطلقين إلى نوتردام ليخلّصوا الفجريّة ، ويغنموا بعضَ تماثيلِ الكنيسةِ المذهّبة .

لم ينمْ كوازيمودو في تلك الليلةِ بالذات . لقد كان شديدَ القلقِ من الاضطراب الذي بدا على الكاهن كما أن كوازيمودو كان قد لمح في ذلك النهارِ وجوهاً متجهّمةً تدورُ حولَ بناء الكنيسة ، وتنظر إلى غرفةِ الفتاة اللاجئة . فظنّ كوازيمودو أن هناكَ مؤامرةً تحاكُ ضدّ الفجريّة ، وأن حقداً شعبياً كان موجّهاً إليها ، كما كان موجّهاً إليه .

وبينما كان يستطلعُ المدينةَ من الشرفةِ ، وبعينه المفردةِ الحادّةِ ، لمح الموكبَ يتقدّمُ نحو الكنيسة .

كان كوازيمودو يتساءلُ إن كان عليه أن يوقظَ الفجريّة ليتيحَ لها منفذاً إلى الهرب ، عندما رأى أن صفوفَ الموكبِ كانت سبعةً أو ثمانية .

والواقع أن كلوبان ترويفو كان قد صفّ جماعتَه كمن يهمّ في الاشتراك في معركة ، ثم أخذ يخطبُ في جمهورهِ قائلاً : « إن أختَنا الأسميرالدا قد أدينتْ ظلماً وباطلاً . وإنها سترُسلُ إلى المشنقةِ في الغدِ ، لولا عنايةُ الله وتدخّلُنا نحن . فليكنِ اللهُ في عونِك أيُّها الأسقف ! تشجعوا أيّها الإخوان ، ولا أظنكم ستلقونَ مقاومة » !

ومن المؤسف أن كوازيمودو لم يسمعْ هذه الأقوالَ ، وأنّه قرّرَ أن يجابهَ وحدَه الحشدَ كلّه . فأخذ يرمي الألواحَ الخشبيّة على المحتشدين ، فقتلَ عدداً كبيراً منهم .

لكنّ المهاجمينَ ظلوا يحاولونَ تحطيمَ بابِ الكنيسةِ ، وهم يعتقدونَ أن الكهنةَ كانوا يرمونهم بالألواح . لقد كانت مقاومةُ كوازيمودو كمقاومةِ فرقةٍ كاملة .

والواقع أن ألواحَ كوازيمودو وحجارتَه لم تكن كافيةً لإبعادِ المهاجمين . وبينما كان الأحياءُ منهم يعملونَ على تحطيمِ البابِ ، انهار عليهم سيلانٌ من الرّصاصِ الذائب ،

فانهار الرجالُ تحت هذا البحرِ الضخم . وارتفعت نارٌ عظيمةٌ بين بُرجي الكنيسة .

أما جوهان فقد خطرت له فكرةٌ مكّنته من دخولِ الكنيسة . فقد نصبَ سُلّماً معلّقاً بحاجز الرّدهة الأسفل . وأخذ جمهورُ اللصوصِ يصفّقُ له بحماسة .

وهبط عن السُلّم ، ورأى جوهان نفسَه وجهاً لوجهِ أمامَ الأحدب . لقد أمسك كوازيمودو ذراعيْ جوهان . بيدِهِ اليسرى ، وأخذ ينتزعُ بيده اليمنى في صمتٍ شديدٍ ، وببطءٍ رهيبٍ ، الأسلحةَ التي كان يحملُها جوهان. فبدا كوازيمودو وجوهان كقردٍ يقشّر جوزة . لقد أدرك جوهان أن أجَله قد جاء .

ورأى المهاجمون كوازيمودو يؤرجحُ جوهان بيدٍ واحدةٍ فوقَ الهاويةِ الهائلةِ ، ثم سُمعتْ ضجةٌ ، ورؤيَ شيءٌ يسقطُ عند ثُلثِ المسافةِ فوق نتوءٍ من البناءِ العظيم . لقد صار جوهان جسداً ميْتاً بقي معلّقاً هناك ، وقد تطايرَ دِماغه .

وارتفعت صَيْحاتُ الرُّعبِ بين اللصوصِ ، وصرخ كلوبان : « إلى الانتقام »

وهجم اللصوصُ ، وهم يصرخون ، ويصعدون إلى

الكنيسة ، وقد صمّموا على الانتقام . أما كوازيمودو فوقف عاجزاً أمامَ هؤلاءِ الأعداءِ ، وهو يرتجفُ خوفاً على الفجريّة .

٣٤ ـ حيث يصلي لويس الحادي عشر

كان في قمة الباستيل ، ليلةَ هجوم الفجر ، ضوءٌ يلمعُ مرسِلاً شعاعَه عبرَ زجاجٍ في أعلى طبقاتِ البناء . والواقعُ أن لويسَ الحاديَ عشَر كان في تلكَ الليلةِ في باريسَ ، وآثر أن ينامَ في غرفةٍ متواضعةٍ من غُرَفِ الباستيل .

وكان معه اثنانِ من السفراء الفلاماندينَ الذين شاهدوا مسرحيةَ « السّر » ، وهما غليوم ريم ، وجاك كوبانول .

وبينما كانوا يتكلّمون ، دخل شخصٌ آخر ، بوجهٍ خائفٍ مضطربٍ وهو يصرخ : « يا صاحبَ الجلالة ! في باريسَ ثورةٌ شعبيّة » !

فنهض الملك مذعوراً مستفسراً ، فقال له الرجل إن الثورة هي ضدّ قاضي القصر ، وليست ضدّ الملك . فاطمأن لويسُ الحادي عشرَ ، وبخاصة حين أبلغه الرجلُ أن الثائرينَ أعلنوا أنهم يعترفونَ بسيّدَيْن ليسَ غيرُ :

اللهِ ، وجلالةِ الملك .

ثم سألَ الملكُ الرجلَ : « وكم عددُ الثائرين » ؟

– « ستةُ آلافٍ يا سيّدي » .

– « وهل هم مسلّحون » ؟

– « بكل أنواعِ الأسلحةِ الشديدة » .

ثم قال الملك بلهجةٍ جدّيةٍ كاذبةٍ : « سنرسلُ النجدة غداً صباحاً » .

فاعترض الرجلُ قائلاً : « ولكنّ علينا أن نرسلها الآن ، لأن ... » .

وقاطعه الملكُ بقوله : « قلتُ غداً صباحاً » .

– « بالمناسبةِ يا صاحبَ الجلالة ، لقد نسيتُ أن أخبرَك أنّ الحرّاسَ قد ألقوا القبضَ على اثنين من المحرّضين ، فهل ترغب في رؤيتِهما » ؟

وصرخ الملك : « طبعاً أريدُ رؤيتَهما ، فكيف تنسى شيئاً كهذا » ؟

وخرج الرجلُ على الفور محضِراً السجينين . وأخذ الملكُ يتحدّث مع الأوّل الذي كان يحمل مِنجلاً . ثم تقدّم الملكُ من الثاني الذي كان يتصبّبُ عرقاً ، وقال :

– « اسمُك » ؟

– « بطرس جرنجوار » .

– « مهنتُك » ؟

– « فيلسوف يا صاحبَ الجلالة » .

وأخذ الملك يستجوِبُه ، حتى إذا انتهى من ذلك قال لرفيقيه الفلامنديين : « لا أرى مانعاً من شنقِ هذا الرجل » .

فاندفع جرنجوار نحو قدمي الملك ، وهو يصرخ بصوتٍ يائسٍ : « يا صاحبَ الجلالة ! إنك ملكٌ عظيم ، فاشفِقْ على رجلٍ مسكينٍ شريفٍ ، لا يمكن أن يُقدِمَ على الثورة . إن العفو من شِيم الأسودِ والملوكِ » . ثم أخذ يزيدُ في توسلاتِه ، حتى إنه قبّل حذاءَ الملك مرات .

وأخيراً عفا عنه الملكُ ، الذي كان سرورُه بادياً بثورةِ الشّعب على قاضي القصر . وخرج جرنجوار سريعاً خوفاً من أن يُصدرَ الملكُ أمراً يناقضُ أمرَه الأوّل .

وبعد خروجه بلحظاتٍ دخلَ الرجلُ الذي أخبر الملكَ ثانيةً ، وقال مضطرباً : « يا صاحبَ الجلالة .. إن عندي خبراً سيئاً .. إن ثورةَ الشعبِ ليست ثورة على القاضي ... إنها .. » .

وصرخ الملكُ : « إنها ماذا » ؟

— « إنها ثورة عليك يا صاحبَ الجلالة » .

فانتصبَ الملكُ العجوزُ حانقاً وصرخ في وجه الرجل : « قسماً بصليبِ القُدس ، إن تكنْ كاذباً أقطعْ رأسك » .

وفتح الرجلُ فمَه ليجيبَ : « يا صاحبَ الجلالة ... »

فقاطعه الملكُ بعنفٍ بالغٍ قائلا : « اركعْ على ركبتيك » ! ثم أخذ يروحُ ويجيءُ مفكّراً . وأخيراً نادى مديرَ شرطةِ باريسَ ، وأمرَه بأن يُعمِلَ السيفَ بالثائرين ، ثم يشنقَ الغجريّة .

وقال غليوم ريم بصوتٍ خافتٍ لرفيقه كوبانول : « هذا هو الواقعُ .. يعاقَب الشعبُ على ما يريدُ ، ثم يُعملُ له ما يريد » .

أما الملك فقال : « الحِمَى ! رغم أنها في الحِمَى يجب أن تشنقَ . اغفري لي أيّتُها السيّدةُ العذراءُ .. إن هذه الساحرةَ ليست جديرةً بحمايتك » .

٣٥ — اللهب الكاذب الصغير

هبط جرنجوار إلى الشارعِ ، تاركاً الباستيل ، واتّجه

نحو شارعِ سانت أنطوان ، ورأى في الظلمةِ رجلاً يلبَسُ زيّاً أسودَ ، فقال : « هل أنتَ هنا أيّها المعلّم » ؟

فتقدّم الكاهنُ ، كلود فروللو ، نحوه وقال : « لقد جعلتَني أنتظرُ طويلا » !

فأجاب جرنجوار : « تصوّرْ أنني رأيتُ الملكَ ، لقد كانت مغامرةً عجيبة » .

— « وماذا يعنيني هذا .. قل لي بسرعةٍ ، هل معك كلمةُ السر » ؟

— « نعم ، إنها معي ، فكن مطمئناً ، إنها : « اللهبُ الكاذب الصغير » .. » .

— « حسنٌ جداً ، فبدونِها لن نستطيعَ أن ننفذَ إلى الكنيسة ، فقد قطع اللصوصُ الشوارعَ كلّها ، ومن حسن حظّنا أنهم لاقوا مقاومةً شديدة » .

— « نعم ، يا سيدي ، ولكن كيف سندخلُ إلى نوتردام » ؟

— « إنني أحملُ مفتاحَ الأبراج . أما الخروجُ ، فمن بابٍ وراءَ الديرِ ، يُطِلُّ على الماء . لقد أخذتُ مفتاحه ، وأعددتُ عند الضفّة قارباً في هذا الصباح » .

واتجها معاً بخطى واسعةٍ ، نحو المدينةِ القديمة .

٣٦ – فوبوس في المعركة

استطاع كوازيمودو أن يُلقيَ بالمهاجمين الأوّلين الذين دخلوا الكنيسة ، خارجاً .

والواقعُ أن الجنودَ الملكيينَ أخذوا يشتركونَ في المعركةِ ، وهكذا وجد اللصوصُ أنفسَهم مضطرينَ لخوضِ دفاعٍ يائسٍ عن أنفسِهم .

وأخيراً استسلمَ اللصوصُ ، بعد معركةٍ ضاريةٍ أظهر فيها فوبوسُ القائدُ شجاعةً فائقة .

أما كلوبان ترويفو ، فقد قُتِلَ بعد أن أظهرَ ضروباً لا تصدّقُ في الدفاعِ عن جماعةِ اللصوص .

٣٧ – الحذاء الصغير

كانت الأسميرالدا نائمةً في الوقتِ الذي هاجم فيه اللصوصُ الكنيسة . لكن الضجّةَ المتعاظمةَ ، وثغاء العنزة ، أيقظاها . ولما تبيّنتْ ما حولها ، خُيِّلَ إليها ، وهي المتأثرةُ بأساطيرِ الفجرِ ، أنها قد رأتِ الكائنات الملعونةَ الليليّةَ ، فخافتْ وجرتْ نحو غرفتِها مختبئةً تحتَ غِطاء .

وفي غمرةِ صلواتِها ، وقلقِها الرهيبِ ، سمعتْ وَقْعَ خُطُواتٍ بالقربِ منها . فالتفتت فإذا أمامَها رجلان ، فصرخت لمّا دخل أحدهُما غرفتَها : « من أنت » ؟

– « بطرس جرنجوار » .

فطمأنها هذا الاسم . ورفعت عينيْها ، فعرفتِ الشاعر . وكان إلى جانبه شخصٌ أسودُ ملفّعٌ من الرأسِ حتى القدمين .

قالت الفجريّةُ بصوتٍ خافتٍ : « من معك هناك » ؟

فأجابها جرنجوار : « اطمئنّي ! إنّه أحدُ أصدقائي » .

وأخذ جرنجوار يداعبُ العنزةَ ، لكن الرجلَ الأسودَ اقترب منه ، وهزّ كتفيه بعنفٍ شديد . فنهض جرنجوار يقول : « هذا صحيحٌ ، لقد نسيتُ أنّنا على عجلٍ من الأمر .. إن حياتَكِ في خطرٍ يا طفلتي العزيزةَ الجميلةَ .. وكذلك حياةُ العنزةِ .. إنهم يريدون أن ينتزعوكِ من حمى الكنيسةِ ، فأتينا نحن لننقذك ، فاتبعينا » .

فصرختِ الفجرية : « هل هذا صحيح » ؟

فقال جرنجوار : « نعم ، صحيحٌ جداً . تعاليْ سريعاً » !

– « إني راغبةٌ حقاً بالنجاة ، ولكن لِمَ لا يتكلّمُ صديقك » ؟

— « ذلك لأن أباه وأمه كانا غريبين جداً ، بحيث جعلاه إنساناً ذا مزاجٍ ميالٍ إلى الصمت » .

لقد وجب أن تكتفي الفتاةُ بهذا التفسير . ثم انطلقوا جميعاً ، مع العنزةِ ، فهبطوا سُلَّمَ الأبراج ، ثم اجتازوا الكنيسةَ ، وخرجوا الى باحةِ الديرِ من البابِ الأحمر .

ووصلوا إلى الشاطىءِ ، حيث قادهم الرجلُ الأسود إلى قاربٍ صغير ، فقطعَ حبلَ إرسائه ، وابتعد القاربُ بمن فيه عن الشاطىءِ ، دون أن ينطقَ الرجلُ ذو اللباسِ الأسودِ بكلمةٍ واحدة .

وفي هذه الأثناءِ كانت الضجةُ تتعالى حولَ كنيسةِ نوتردام . وقد كانت تُسمعُ صيحاتٌ واضحةٌ جليةٌ من الجيرانِ : « إلى الموتِ أيتها الفجريةُ الساحرة » .

ووصل القاربُ أخيراً إلى الشاطىء ، الذي كان خالياً من الناس . وهنا قال جرنجوار إنه سيكتفي بحمايةِ العنزةِ تاركاً أمرَ الفتاةِ للرجلِ المجهول .

ولما أصبح الكاهنُ والفتاةُ وحيدين ، أخذت تسألهُ : « من أنت ؟ من أنت » ؟ فرفع الرجل قناعَه ، وصرخت الفتاة متلعثمة : « لقد كنتُ أعرف أنه هو أيضاً » !

لقد كان الكاهنَ نفسه .

فقال الكاهن : « أصغي إليّ . إن أمرَ حياتِك في يدي الآن . لقد صدر عن البرلمانِ تشريعٌ خاصٌ بتحويلِك إلى المشنقة . وقد أتيتُ لأنقذَك .. إنك تعلمين أنهم وراءَك ، ولكني أستطيعُ أن أنقذَك تماماً ، وقد أعددتُ العُدةَ لذلك . فاختاري : إما المشنقةُ ، وإما أنا » .

وأخيراً قالت الفجريّة : « إن المشنقةَ تبعثُ في نفسي من الرعبِ أقلّ مما تبعثُه أنت فيها » .

— « إني أحبُك ، أفلا ترينَ النارَ التي تحرقُ قلبي . إنك طيّبةٌ مع الجميعِ ، لكنّك خبيثةٌ معي » .

واستسلم الكاهنُ للبكاء ، ثم قال : « إنك جديرة بالضحكِ حين ترينني أموت . أما أنا فلست أحبُ أن أراك ميتةً . كلمةٌ واحدة منك تكفي لإنقاذنا معاً » !

لكن الفجريّة أجابته : « إنك قاتلٌ مجرم ! إنك قبيحٌ ! أين فوبوس حبيبي أيّها العجوز » ؟

ولم يعدِ الكاهن قادراً على الصبر ، فأمسكَ بالفتاةِ من مِرفقها ، ودفعها ، فإذا بها وجهاً لوجهٍ أمام الحبيسةِ التي تكره الفجر . وقال الكاهنُ للحبيسة : « أمسكي بها جيداً . إنها الفجريّةُ . لا تتركيها أبداً . سأذهب باحثاً عن الجنود ، ثم أعودُ فترينَها تُشنق أمامك » .

فكان الجوابُ ضحكةً رهيبة أطلقتها الحبيسة التي كانت تصرخُ بجنونٍ : « ابنة الفجر » !

فاستولى الخوفُ على الفجريّة التي راحت تسترحمُ الحبيسةَ قائلةً : « ماذا صنعتُ لكِ ؟! إنني فتاةٌ مسكينةٌ ، دعيني أذهب » !

فلم تجبْها الحبيسةُ أولاً . لكنّها صرخت بعدَ قليل : « تقولين ماذا صنعتِ لي ؟ آه ، أيّتها الفجريّةُ ، لقد اختطف الفجرُ طفلتي الصغيرة . لقد أخذوها منّي ، وأكلوها » .

فردت الفتاة : « قد لا أكون وُلِدْتُ يوم ذاك .. رُحماك ! اتركيني » !

— « أرجعي طفلتي إلي ، يا ابنةَ الفجر » !

— « إن كنت تبحثين عن ابنتك ، فإني أبحثُ عن أبويّ » .

— « أرجعي طفلتي إليّ . انظري ! هذا كل ما بقي لي منها » . ومدّتْ إلى الفجرية حذاءً مطرزاً صغيراً ، استطاعت الفتاةُ أن تتبيّنَ شكلَه وألوانَه على ضوءِ الفجرِ الباهت .

فارتعدتِ الفجريّة ، وفتحتِ التميمةَ التي كانت تعلّقها من عُنقِها . وسرتِ الرجفةُ في كلٍّ منهما عندما ظهر

أن الحذاءَ الصغيرَ الذي تحملُه الفتاةُ كانَ يشبهُ حذاءَ الحبيسةِ .

وصرختِ الحبيسةُ بعد أن قابلت بين الحذاءين : « ابنتي ! ابنتي » ! وصرختِ الفتاةُ : « أمّاه » ! وصاحتِ الحبيسةُ : « آه .. الجدار » ! لقد كان الجدارُ حاجزاً بينهما . لكنّ الأمّ أخذت تضربُه بالأحجار حتى أحدثت فيه فجوةً ، استطاعت أن تدخلَ ابنتَها منها ، فتقبّلها وتحدّثها .

وأخبرتِ الفتاةُ أمّها أن الجنودَ يبحثون عنها ليشنقوها . وبعد قليلٍ سمعتِ الأمُّ صوتاً يقول : « من هنا أيّها القائدُ فوبوس دي شاتوبار » !.. فتحركت الأمُّ ، وأشارت إلى ابنتها أن تبقى مكانها دون أن تتحرّك .

وتقدّم رئيسُ الشُّرطةِ ، تريستان لارميت ، من الحبيسةِ وقال : « قيل لنا أيّتُها العجوزُ إن الفتاةَ المحكومَ عليها بالإعدام ، موجودةٌ عندَك ، فأين هي » ؟

فاتّخذت الأمُّ المسكينة هيئة من لا تبالي، ثم قالت : « لقد ذهبتْ ... في اتجاه شارع ... موتون . » !

وكاد تريستان يصدّقها ويذهب ، حين قال فوبوس له : « أستأذنُك يا سيّدي بالذهابِ لألتحقَ بسريّتي » .

وهنا صرختِ الفجريّة ، التي ظلّتْ جامدةً طوال

ذلك الوقت ، قائلة : « فوبوس ! إليّ يا فوبوس » !

وكان فوبوس قد ابتعد . لكن تريستان ما زال موجوداً !

وانقضت الأمُّ على ابنتِها تزجرُ ، محاولةً إخفاء الأمرِ . لكن تريستان أمرَ جنوده بإلقاءِ القبض على الفتاة . وانتصبتِ الأمُّ مدافعةً عن ابنتها ، فأخذت ترمي الجنودَ بالحجارة ، دون أن تصيبَهم لارتجاف يديها .

وأخيراً أخذت تتضرّعُ إليهم : « رُحماكم ! إنها ابنتي . سادتي الجنودُ .. أرجوكم أن تسمعوني . إنها قصةٌ طويلة . لقد سرق الفجريّون ابنتي الصغيرةَ منذ خمسةَ عشرَ عاماً .. وها هي أمامي . فهل ستحرمونني منها .. إنكم طيّبونَ أيّها الجنودُ .. » .

وقال تريستان ، وهو يخفي دمعةً من عينه : « إنها أوامرُ الملك » . ثم أمر جنودَه بأخذِ الفجريّة .

وانقضت الأم على الجنديّ الذي اقتربَ من فتاتِها ، فعضتْه ، ثم أخذت تقبّلُ ابنتَها بجنون . وأخيراً انتزعَتِ ابنتَها من يديها . ودفع الجنودُ بالأمّ دفعةً شديدة ، ليتخلصوا من عضّاتها ، فاصطدمَ رأسُها ببلاط الساحةِ وماتت .

٣٨ - المشنقة

جُن كوازيمودو لما رجع إلى ملجأِ الفتاةِ في الكنيسة دون أن يجدَها . فأخذ يضربَ رأسَه بالجدارِ فأغميَ عليه .

وعندما رجع وعيُه إليه ، ألقى نفسَه على السرير ، يتقلّبُ عليه كأنه نمِرٌ متوحّش .

ثم مرّ الكاهنُ به دون أن يكلّمَه واتّجه إلى النافذةِ مثبتاً نظرَه على شيءٍ ما . ولحقه كوازيمودو ، الذي أخذ ينظرُ إلى الساحةِ ، فشاهدَ جسدَ صديقته متأرجحاً على المشنقة .

أما الكاهنُ فانفجرَ يقهقه قهقهاتٍ شيطانيّة ، توحي بفقدانِه معنى الإنسانيّةِ والوجود . أما كوازيمودو فلم يسمع هذه القهقهةَ لكنّه رآها . وتراجع قارعُ الأجراسِ قليلاً وراءَ الكاهنِ ، ثم انقضّ عليه فجأةً ، وقذف به في الهاويةِ بيديْه الغليظتيْن . وسقط الكاهنُ ، وتعلّق بأحد الميازيب . لقد كان كوازيمودو قادراً على إنقاذِه في تلك اللحظة .

وسمع الكاهنُ الفضوليينَ الذي تجمعوا في الساحة تحته يقولون : « إن هذا الأحدبَ سيدقُّ عنقَه » .

أما كوازيمودو فكان يبكي .

وأيقن الكاهنُ أن ساعتَه قـد حانت عندمـا انهارَ أنبوبٌ رصـاصيٌّ كان يتكىءُ عليه . وتمزّق ثوبُـه ، وانهارت يداه ، فأغمض عينيه وترك الميزاب ، وسقط .

***

أما فوبوس فقد تزوج حبيبته .

وأما جرنجوار فقد نجا بالعنزة ، ورجـع إلى نشاطِه المسرحيّ وسجّل نجاحاً ملحوظاً في فنّ المأساة .

وأما كوازيمودو فقد اختفى من الكنيسة ، بعـد أن رفع جسدَ الفجريّةِ عن المشنقة . وفي إحـدى ضواحي باريس ، وبعـد حوالى ثمانيةَ عشرَ شهراً على حوادث قصّتنا ، وُجد كهفٌ فيه جثّتان : الأولى جثّةُ امرأةٍ تبيّن أنها ماتت شنقاً ، والثانيةُ جثّةُ رجلٍ لوحظ أن في عمودِه الفقري انحناءً ظاهراً ، وأن جمجمتَه غارقةٌ بين عظمتي كتفيه ، وأن إحـدى ساقيه أقصرُ من الأخرى . وكان واضحاً أنه لم يُشنق ، لعـدم وجودِ كَسرٍ في عنقه .

وكانت جثّةُ الرجلِ معانِقةً جثّةَ المرأة .

انتهت

الفهرس

الموضوع الصفحة

الناجحون

مجموعة كتب تعرض حياة نخبة من ابطال العالم في الشرق والغرب ، في الحرب والسلم ، رجالا ونساء ، قديما وحديثا . وهي موجهة الى الفتيات والفتيان ، بقلم عدد من رجال التربية وعلم النفس . صدر منها :

١ ـ زنوبيا ... ملكة تدمر
٢ ـ خالد بن الوليد ... بطل اليرموك
٣ ـ نابليون بونابرت ... قاهر اوروبا
٤ ـ بتهوفن ... ابو السمفونيات
٥ ـ طارق بن زياد ... فاتح الاندلس
٦ ـ هنيبعل ... بطل قرطاجة
٧ ـ كولومبوس ... مكتشف اميركا
٨ ـ عبدالرحمن الداخل ... صقر قريش
٩ ـ صلاح الدين الايوبي ... بطل حطين
١٠ ـ مدام كوري ... مكتشفة الراديوم
١١ ـ اديسون ... الذي أضاء العالم
١٢ ـ غاندي ... ابو الهند
١٣ ـ شكسبير ... شاعر الانسانية
١٤ ـ المتنبي ... شاعر العرب
١٥ ـ الاسكندر ... فاتح العالم القديم
١٦ ـ باستور ... عدو الجراثيم
١٧ ـ ابن بطوطة ... رحالة العرب
١٨ ـ هيلين كيلر ... المراة المعجزة
١٩ ـ شجرة الدر ... اول ملكة في الاسلام
٢٠ ـ ليوناردو دا فنشي ... الرسام الخالد

المكتبة العالمية للفتيان والفتيات

- سلسلة كتب جديدة للمطالعة تلبي حاجة الفتيان والفتيات في المرحلتين الابتدائية والمتوسطة .
- أشرف على تلخيصها عن روائع الادب العالمي نخبة من كبار الكتاب العرب .
- اخراج جديد . لوحات بالالوان تجليد فاخر .

صدر منها :

١ ـ روبنسون كروزو
٢ ـ كوخ العم توم
٣ ـ آخر ايام بومباي
٤ ـ جزيرة الكنز
٥ ـ البؤساء
٦ ـ دايفيد كوبرفيلد
٧ ـ حول العالم في ثمانين يوما
٨ ـ قصة مدينتين
٩ ـ أوليفر تويست
١٠ ـ الزنبقة السوداء
١١ ـ القلعة
١٢ ـ مرتفعات ويذرنغ
١٣ ـ الفرسان الثلاثة
١٤ ـ آيفنهو
١٥ ـ دون كيشوت
١٦ ـ بائعة الخبز
١٧ ـ أحدب نوتردام
١٨ - طفل من غير اسرة
١٩ - كولومبا
٢٠ - تمرّد على السفينة باونتي

ايام العرب

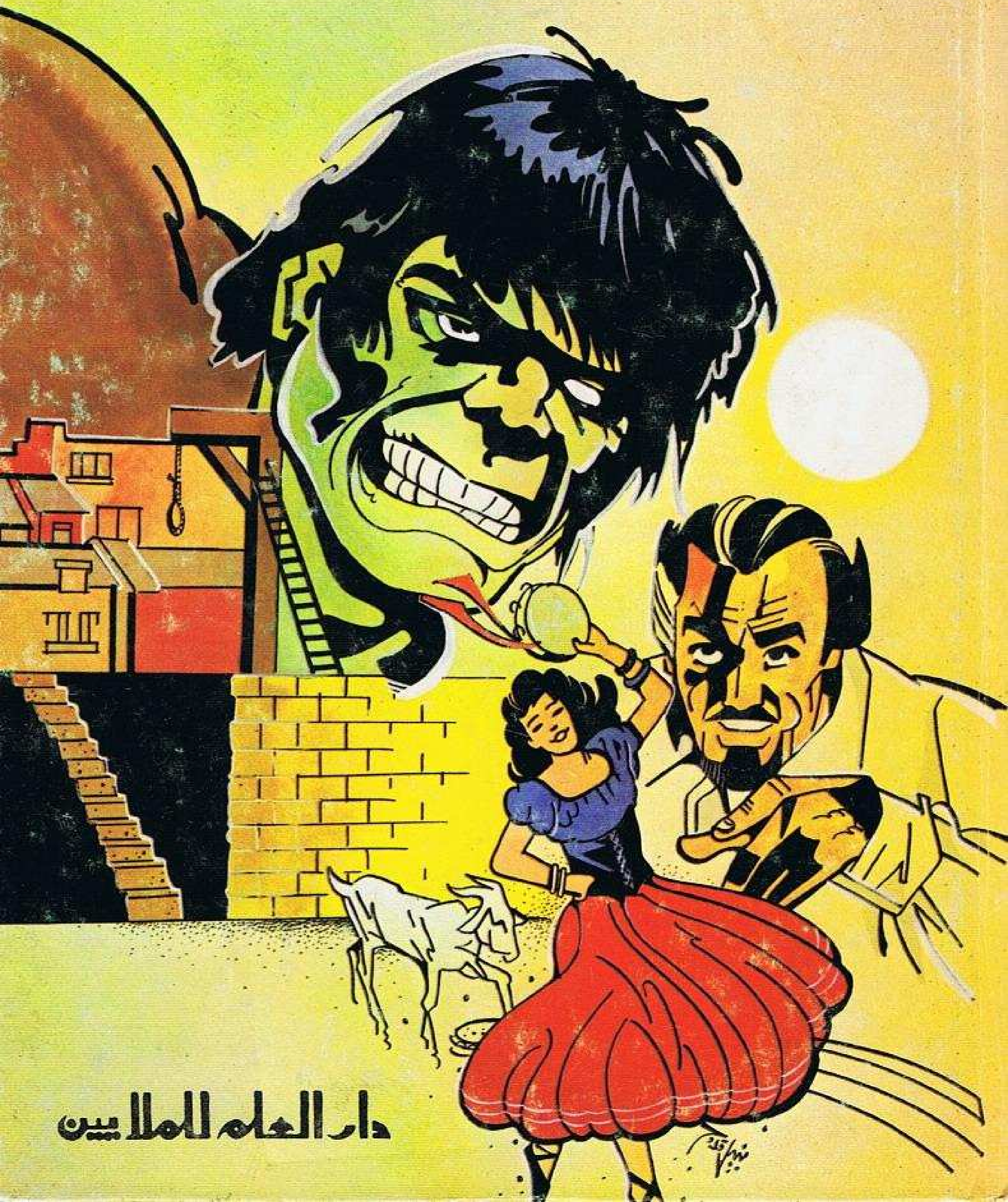
سلسلة كتب جديدة للفتيات والفتيان

تصور اهم معارك العرب في الجاهلية والاسلام

- يوم البسوس ـ الجزء الاول
- يوم البسوس ـ الجزء الثاني
- يوم داحس والغبراء
- يوم بدر
- يوم احـد
- يوم فتح مكة
- يوم حنين
- أيام العراق
- يوم القادسية
- يوم اليرموك

المكتبة العالمية
للفتيان والفتيات

أحدب نوتردام



دار العلم للملايين